الأبحاث والدراسات 68

الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : منطقة الباحة : دراسات، وإضافات، وتعليقات (ق١ ـ ق١٥هـ / ق ٧ ـ ق ٢١ م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م)، (الجزء الأول)، ص ص ١٧٧ – ٢٣٠ .

الدراســـة الخامســـة

الباحة (بلاد غامد وزهران)
في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين

بقلم :أ.د. عيثان بن علي بن جريس (*)

(*) نشرت هذه الدراسة في كتاب:
القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) ، ط١
(١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م) - (الجزء الخامس)
الرياض : مطابع الحميضي، ص ص ٢١ - ٩١

الدراسة الخامسة: الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين:

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	**مدخل**	١٧٩
ثانياً:	**التعريف بالرحالة ومدوناتهم**	١٨٢
	١- الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣-٤هـ/ ٩-١٠م)	١٨٢
	٢- شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشاري المقدسي (ق٤هـ/١٠م)	١٨٣
	٣- ناصر خسرو (ق٥هـ/١١م)	١٨٥
	٤- محمد بن أحمد بن جبير (ق٦-٧هـ/ ١٢-١٣م)	١٨٦
	٥- جمال الدين يوسف بن يعقوب المعروف بـ(ابن المجاور) (ق٧هـ/١٣م)	١٨٨
	٦- شهاب الدين أحمد بن فضل الله العُمري (ق٨هـ/١٤م)	١٩١
	٧- ابن بطوطة (ق٨هـ/١٤م)	١٩٣
	٨- العباس بن علي الموسوي (ق١٢هـ/١٨م)	١٩٥
	٩- موريس تاميزيه (ق١٣هـ/١٩م)	١٩٦
	١٠+١١- السير كيناهان كورنواليس+ روبن بدول (ق١٤هـ/ ٢٠م)	١٩٩
	١٢- الشريف البركاتي (ق١٤هـ/٢٠م)	٢٠٣
	١٣- محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/٢٠م)	٢٠٤
	١٤- ولفرد تسيجر (ق١٤هـ/٢٠م)	٢٠٦
	١٥- حمد بن محمد الجاسر (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م)	٢٠٧
	١٦- علي صالح السلوك الزهراني (ق١٤-١٥هـ/ ٢٠-٢١م)	٢١٠
	١٧- عاتق بن غيث البلادي (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م)	٢١٤
	١٨- عبد الرحمن صادق الشريف (ق١٤ -١٥هـ/٢٠- ٢١م)	٢١٦
	١٩- علي حافظ (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م)	٢١٧
	٢٠- مسفر الغامدي (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م)	٢٢٠
ثالثاً:	**وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم**	٢٢١
	١- تنوع ثقافة الرحالة	٢٢١
	٢- المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات	٢٢٣
	٣- دراسة مقارنة لمدونات الرحالين	٢٢٤
رابعاً:	**الخلاصة مع بعض النتائج**	٢٢٩

أولاً : مدخل :

منطقـة الباحــة هي تلك الأوطان المأهولة بالسـكان في وسـط بلاد تهامة والسـراة، والواقعة بين منطقتي مكة المكرمة في الشـمال وعسـير في الجنوب . وأهلها هم الغامديون والزهرانيون الأزديون الوارد ذكرهم في كثير من كتب التراث الإسلامي(١) . وعند مقارنة التاريـخ المـدون عن هذه البلاد مـع ما تم تدوينه عن المناطق المجـاورة مثل: مدن الحجاز الرئيسية، أو عسير ونجران وغيرها نجد أن الديار الزهرانية والغامدية من أقل البلدان المكتوب عنها(٢)، أو المذكورة في الكتب والمدونات المطبوعة والمنشـورة . وربما كان توسطها في أرض السراة، وبعدها عن الطرق التجارية الرئيسية القديمة التي تربط الحجاز باليمن من الأسـباب التي ساهمت في ضعف أو قلة التدوين عنها . والذاهب الآيب في قرى وجبال وأودية وحواضـر منطقة الباحة يتضـح له أن هـذه البلاد ذات تاريخ عريـق فهي مأهولة بالسـكان، مليئة بالخيرات الزراعية والثروات الحيوانية . بل أهلها أصـحاب كرم ونجدة وشجاعة وبسالة وشيم، ناهيك عن إحاطة العديد من القبائل الكبيرة والمراكز الحضارية الهامة . وكل هذه العوامل كفيلة بأن يكون لها تاريخ وحضـارة، ولكن للأسـف ـ وكما أشرنا سابقاً ـ هذا التاريخ لم يحفظ عن هذه البلاد العربية الماجدة(٣) .

وفي هـذا البحـث الموسـوم بـ : **الباحـة (بـلاد غامـد وزهـران) في عيـون بعض الرحالـين المسلمين وغير المسلمين**، سـوف نطلـع القـارئ الكـريم علـى شـريحة مـن العلمـاء والكتـاب الذيـن تعرضـوا في مدوناتهـم إلى صـور مـن تاريـخ وحضـارة منطقـة الباحـة . وهـذه الشـريحة هـي التـي أطلقنـا عليهـا مصطلح (الرحالـين، أو الرحالـة) ، والكثـير منهـم يأتـون في مصـاف الجغرافيـين والرحالـين

---

(١) قبائل غامد وزهران لها ذكر حسـن وجيد في كتب التراث الإسـلامي منذ فجر الإسـلام إلى عصـرنا الحاضـر. ودراسـة تاريخ وحضـارة الديـار الغامديـة والزهرانية خلال القـرون الإسـلامية العشـرة الأولى جدير بالبحث والاهتمام والدراسـة . ونأمل من المؤرخين المتخصصـين وبخاصـة أهل غامد وزهـران أن يولوا هذا الجانب كبير اهتمام في بحوثهم ودراساتهم العلمية والأكاديمية .

(٢) بـلاد نجران : هي الأخـرى لازالت فقيرة في مجال البحث والتدوين . ونأمل أن تقوم جامعة نجران بإنشـاء بعض المراكـز البحثيـة التي تتولى البحث والتمويل للدراسـات التي تصـب في خدمة المجتمع النجـراني ثقافياً وتاريخياً وحضارياً .

(٣) لقد زرت منطقة الباحة أكثر من مرة، وتجولت في ربوعها، وجالسـت أهلها، وسمعت من بعض رواتها، ووقفت على بعض موروثاتها وآثارها التاريخية فتأكد لي أن هذه البلاد وسكانها أهل حضارة وتاريخ ومجد عريق . وكما أشرت في أكـثر من مكان، بـأن الباحثين والمؤرخين الغامديـين والزهرانيين، وكذلك القائمين علـى جامعة الباحة عليهم جميعاً مسؤولية كبيرة تجاه المجتمع الغامدي والزهراني، والواجب عليهم خدمته في شتى المجالات العلمية والبحثية الثقافية والفكرية . للمزيد انظر: غيثان بن جريس . دراسـات في تاريخ تهامة والسـراة خلال القرون الإسـلامية المبكـرة والوسـيطة (ق١ـ ق١٠ هــ / ق٧ـ ١٦م) (الرياض : مطابع الحميضـي، ١٤٣١ـ ١٤٣٢هــ/ ٢٠١٠ـ ٢٠١١م) . الجزء الثاني، ص ١٣٣ ـ ٢٥٠ .

الجيدين. وعدد هؤلاء الرحالة الوارد ذكرهم في هذا الكتاب عشرون رحالاً، ولا ندعي أننا شملنا كل الرحالين الذين زاروا منطقة الباحة أو أشاروا إليها في كتبهم ومدوناتهم، ولهذا فقد ذكرنا كلمة (بعض) في عنوان هذه الدراسة، حتى نترك الباب مفتوحاً لمن أراد أن يستكمل ما لم نستطع الوصول إليه أو الاطلاع عليه . كما أننا أيضاً لا ندعي الكمال فيما أوردناه، ومن ثم ندعو كل من لديه علم، واطلع على قصور أو نقص وقعنا فيه أن يستكمل ويصحح إذا كان ذا فائدة علمية تضيف جديداً أو تصحح خطأً[1] .

الرحالون الوارد ذكرهم في هذا البحث بدأوا بالمؤرخ والنسابه (لسان اليمن) الحسن بن أحمد الهمداني، وانتهوا ببعض الغامديين والحجازيين الذين تعرضوا لبلاد الباحة في مدوناتهم مثل: علي حافظ، ومسفر مرزح الغامدي[2]. والناظر في فهرست البحث العام لهؤلاء الرحالة يجد أن سبعة منهم أشاوروا إلى ذكر غامد وزهران أو الديار السروية الزهرانية والغامدية من القرن (٣-٨هـ/٩-١٤م) . أما الفترة الممتدة من القرن (٩-١١هـ/ ١٥-١٧م) فلم نجد أي رحال ذكر تاريخ هذه البلاد. وفي الزمن الممتد من القرن (١٢-١٥هـ/١٨-٢١م) نجد (١٣) كاتباً أو رحالاً تعرضوا لذكر تاريخ وحضارة منطقة الباحة (غامد وزهران) مع التفاوت في الحجم والتنوع في مدوناتهم. ونقول للقارئ الكريم أن هناك أسباب عديدة جعلتنا نفرد قسماً مستقلاً في هذه الدراسة عن بعض المؤرخين والرحالين أو الكتاب الذين زاروا أو عرفوا البلاد الزهرانية والغامدية، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١. التاريخ ليس محصوراً في كتب التاريخ البحتة، وإنما هو علم واسع فمصادره متنوعة ومتشعبة . والبحث في التاريخ يختلف حسب الزمان والمكان، وحسب العنوان أو الموضوع الذي يراد دراسته وبحثه . وكتب الجغرافيا والرحلات من المصادر الهامة في علم التاريخ، وهذا ما لمسناه في هذا القسم، فهناك العديد من الرحالين والجغرافيين الذين ذكروا بعض التفصيلات عن بلاد غامد وزهران، وقد يصعب أحياناً أن نجد بعض المعلومات التي ذكروها عند غيرهم من المؤلفين والكتاب .

٢. من المؤكد أن هناك أقوال وروايات عند بعض الرحالين الذين جابوا الجزيرة العربية ولم نطلع على مدوناتهم، وبعضهم كانوا علماء في اللغة والشريعة أو في علوم أخرى، وقد يكون منهم أمراء وقضاة ورجال حكم وسياسة، ومثل هؤلاء ربما ذكروا أو أشاروا

---

(١) هذه دعوة نذكرها دائماً في جميع كتبنا ودراساتنا، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها. فالواجب علينا جميعاً أن نتناصح ونصحح بعضنا، فكل منا مرآة لأخيه المسلم . ونرجو كل من يجد خطأً أو قصوراً وقعنا فيه أن ينبهنا إلى هذا العيب حتى نصححه ونتلافاه في قادم الأيام.

(٢) انظر الفهرس العام لهذه الدراسة .

إلى بـلاد غامد وزهـران . ومن ثم فلا ندعي الكمال والشـمولية لكل الرحالين الذين تعرضـوا لمنطقة الباحة. ونحن ننادي من على صفحات هذا الكتاب أن تُدرس منطقة غامد وهران بشـكل أوسـع وأشـمل وبخاصـة في أقوال وروايات المؤرخـين والرحالين والأدباء والشعراء والجغرافيين. ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على مادة طيبة تصور التاريخ الحضاري للمجتمعات الغامدية والزهرانية .

٣. الجميـل في إيراد أقوال هؤلاء الرحالـين المختلفين في الثقافـات والاتجاهات وأحياناً في الديـن والدمـاء، وكذلك في مواطنهم الرئيسـية، وفي عصـورهم الزمنية،كل هذا يؤكد على أن العلم شـيء مشـاع لكل الناس، فهذا الأندلسـي، وذاك الفارسـي، وآخر المغربي، بل ذاك المسلم وآخر النصراني كلهم اجتمعوا على تدوين التاريخ والحضارة لمجتمعات عربية أزدية سـروية منزوية في صقع من أصـقاع بلاد السراة. وهذا فضل مـن الله عزوجـل أن جعل في هذه الدنيـا أقوام يخدمون آخرين وليس بينهم صـلة أو قرابة، وإنما العلم وخدمة الثقافة والفكر هو الذي سخرهم ودفعهم لذلك .

٤. إذا اطلع بعض الباحثين المحدثين، أو بعض مثقفي بلاد غامد وزهران إلى هذا السرد التاريخـي، وما دونه لنا أولئك الرحالون المتقدمـون والمتأخرون، فربما أدى ذلك إلى بعث النشـاط والحماسـ في قلوبهم وهممهم فيكتبوا بعضـ مدوناتهم أو رحلاتهم في بلادهم أو غيرها، وإذا فعلوا ذلك، فإنه مما يثري الميادين الثقافية والعلمية والفكرية في بلادنا وبين مجتمعاتنا .

٥. موضـوع الرحلة والرحالين في بلاد غامد وزهران خلال العصـور الإسـلامية المبكرة والوسـيطة والحديثة والمعاصرة جدير بالدراسة . بل يستحق أن يفرد له كتاب مستقل أو رسـالة علمية أكاديمية . ولو قام أحد الباحثين الجادين بدراسـة هذا الموضوع فإنه ـ بدون شك ـ سوف يضيف إلى المكتبة العربية كل جديد ونافع (بإذن الله تعالى) .

٦. هناك الكثير من الموظفين جاؤوا إلى منطقة الباحة منذ منتصف القرن (١٤هـ/ ٢٠م)، بل وبعضـهم من الأدبـاء والمعلمين والشـعراء، وقد يكون لهم آثـار في المنطقة، وربما سـجلوا بعض ملحوظاتهم أو انطباعاتهم ومشاهداتهم . ونأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين المعاصرين فيدرس مثل هذا الموضوع الذي قد يدون عنه مادة علمية جديدة تعكس صوراً من تاريخ وحضارة الإنسان في منطقة الباحة .

ثانياً : التعريف بالرحالة ومدوناتهم :

١ـ الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣ـ٤هـ/ ٩ـ١٠م) .

أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المعروف بابن الحائك، وهو من بيت متوسط من بيوت بكيل ببلاد همدان[١] . ولد في صنعاء في النصف الثاني من القرن (٣هـ/٩م) [٢]. نشأ في عصر تقدمت فيه العلوم والآداب وتفنن أهلها في التصنيف والتأليف، وقد شارك هذا الرحالة اليمني في جميع معارف عصره من تاريخ وأنساب وجغرافية وفلك ودراسة لحركات الكواكب وبحث عن سنن الطبيعة وآراء الملل والنحل وغيرها من العلوم[٣] . وهناك آثار كثيرة لهذا العالم اليمني قد فقدت، وأشار إلى بعضها عبد الله بن محمد عبد الله الحبشي[٤] .

والكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة هو كتاب : **صفة جزيرة العرب**، فهو من أهم مؤلفات الهمداني، وهو من أهم الكتب لمعرفة جزيرة العرب وبخاصة الجنوبي منها، ولم يكتف هذا الرحالة بوصفها نقلاً عن غيره وإنما تنقل في معظم أجزائها [٥]. وقد زودنا بتفصيلات قيمة عن البلاد الممتدة من الطائف ومكة المكرمة إلى حواضر اليمن الكبرى. وإذا قارنا ما حفظ لنا هذا الرحالة مع غيره فإنه يفوقهم في دقة الرصد وجودة المادة العلمية التي يندر أن نجدها عند سواه[٦] .

وعن منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران) ، فالظاهر على الرحالة أنه جاب بلاد السراة الممتدة من نجران وقحطان إلى زهران والطائف مرات عديدة[٧]، وكان لديار

---

(١) لقد أورد الهمداني نسبه كاملاً في كتابه، الإكليل، ج١٠، ١٩٢ـ ٢٠٤ .

(٢) ليس هناك تاريخ دقيق يحدد ولادته، وتذكر بعض المصادر أن ولادته كانت من الخمسينيات إلى نهاية السبعينيات من القرن (٣هـ/٩م) . ونجد الأستاذ محمد علي الأكوع محقق كتاب : صفة جزيرة العرب للهمداني، يحدد تاريخ ميلاده في عام (٢٨٠هـ) . انظر : الهمداني . صفة جزيرة العرب . تحقيق الأكوع (الرياض) (١٣٩٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٥ وما بعدها .

(٣) للمزيد عن حياة الهمداني انظر بعض كتبه التي تم العثور عليها مثل: صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين، وكتاب الإكليل، وكتاب الدامغة . وهناك كتب أخرى لم تصلنا وفي الغالب أنها ضاعت مثل: كتاب الأيام الذي ورد ذكره في بغية الوعاة للسيوطي، وكتب أخرى مثل: الحيوان،، وسرائر الحكمة، واليعسوب في آلات الحرب وأخبار الأبطال والشجعان الذين امتازوا باستعمالها وقد سماه الهمداني في كتاب : صفة جزيرة العرب (القوس من اليعسوب) .

(٤) للمزيد انظر: (عبد الله الحبشي . مراجع تاريخ اليمن (طبعة دمشق سنة ١٩٧٢م)، ص١٣ وما بعدها .

(٥) لقد اعتمدنا على النسخة التي حققها محمد علي الأكوع وأشرف على مراجعتها وطباعتها حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة) (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٦ وما بعدها .

(٦) لقد كانت سعة الثقافة التي يتمتع بها الهمداني، بالإضافة إلى كثرة تنقلاته وتجواله في أرجاء الجزيرة من الأسباب الرئيسية في ثراء مادة كتاب : صفة الجزيرة . للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٣، ص٣٢٦ وما بعهدها . ج٤، ص٢٦ وما بعدها .

(٧) الهمداني، صفة، ص٢٥٥ وما بعدها، غيثان بن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني " مجلة الدارة، ربيع الآخر والجمادان (١٤١٤هـ) . العدد (٣) . السنة(١٩)، ص ٧٦ وما بعدها .

قحطان وشهران ورجال الحجر[١]، ثم الطائف نصيب لا بأس به في شروحاته . أما بلاد غامد وزهران فلم يولها كبير اهتمام، وإنما أشار إليها في إحدى رحلاته من اليمن إلى الحجاز عندما كان يعدد بعض السروات الواقعة بين صنعاء والطائف فقال : " ... ثم سراة زهران من الأزد دوس وغامد ... نجدهم بنو سواءة بن عامر وغورهم لهب، وعويل من الأزد وبنو عمرو، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية، ثم سراة بجيلة.. "[٢]. وفي مكان آخر من الكتاب يعدد السروات فيقول: " .. ثم يتلو سراة عنز سراة الحجر بن الهنو .. ثم يتلوها سراة غامد، ثم سراة دوس، ثم سراة فهم وعدوان ... "[٣]. ويفصل الحديث عن بعض السروات الواقعة إلى الجنوب من بلاد غامد وزهران[٤]، وعندما يصل إلى الديار الغامدية يشير إليها بقوله : " ... ثم غامد، ثم بلد النمر، ثم بلد دوس من وراء ذلك .. "[٥]. ويشير إلى لغة أهل السروات الممتدة من اليمن إلى الطائف ويشيد بحسن بيانهم وفصاحة لغتهم[٦]. وفي صفحات عديدة من كتابه يذكر بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في أرض السروات من صنعاء إلى الحجاز، إلا أن البلاد المعنية في هذا القسم لم ينلها نصيب يذكر، وربما أن هذا الرحالة كان يجتاز بلاد غامد وزهران بشكل سريع دون أن يمكث بها بعض الوقت ويدون بعض ما سمع أو شاهد، كما كان يفعل في سروات منطقة عسير أو أجزاء من بلاد اليمن[٧].

٢ـ شمس الدين أبو عبد الله المقدسي المعروف بالبشاري (ق٤هـ/١٠م) :

لا نعرف إلا القليل عن ميلاد المقدسي ونشأته، وكان مولده في بيت المقدس، جاب عدداً من أقاليم العالم الإسلامي[٨]، ثم دون كتابه الموسوم بـ: أحسن التقاسيم في معرفة

---

(١) بلاد قحطان وشهران ورجال الحجر أجزاء من منطقة عسير في عصرنا الحاضر وهي ديار واسعة ومأهولة بالسكان، وتستحق العديد من الدراسات التاريخية والحضارية . ونأمل من جامعة الملك خالد أن تولي هذه النواحي وغيرها اهتماماً كبيراً في مجال البحوث والدراسات .

(٢) الهمداني، صفة، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) وبخاصة سروات الحجر المعروفة اليوم ببلاد بني عمرو، وبني شهر، وبللسمر، وبللحمر فقد أورد عنها تفصيلات جيدة . انظر : الهمداني، صفة، ص ٢٦١ـ٢٦٢ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٢ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ . أشار إلى بلاد غامد وزهران ضمن بلاد السروات فقال : " الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد فبني الحارث، فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسامة فعنز فخثعم فهلال بن ربيعة فسرة الحجر فدوس فغامد .. " . الهمداني، صفة، ص ٢٧٩ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ وما بعدها . وشخصية الهمداني وكذلك مؤلفاته التي وصلتنا تحتاج العديد من البحوث والدراسات الأكاديمية . ونأمل أن نرى من طلابنا أو طالباتنا في برامج الماجستير والدكتوراة . بجامعات الملك خالد، والطائف، والباحة، وجازان، ونجران فيولوا هذا العالم اليمني وكتبه كبير اهتمام في أعمالهم العلمية والأكاديمية . والدعوة موجهة أيضاً إلى أعضاء هيئة التدريس في أقسام التاريخ بهذه الجامعات الآنفة الذكر أو غيرها من الجامعات السعودية الأخرى .

(٨) زار هذا الرحالة حوالي أربعة عشر إقليماً هي : الجزيرة العربية، والعراق، وأقور، والشام، ومصر، والمغرب، والمشرق، والديلم، والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند . انظر : المقدسي، أحسن التقاسيم . تحقيق أم . ج . دي . خوية (ليدن : مطبعة بريل، ١٨٧٦م)، ص ٩ ـ ١٠ .

الأقاليم، وكان تدوينه لهذا السفر في مدينة شيراز الفارسية عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، وعمره آنذاك حوالي أربعين سنة [١].

ويشير المقدسي إلى سبب تدوين هذا الكتاب، فيقول : ".. أما بعد مازالت العلماء ترغب تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم، وأقيم علماً أحيي به ذكري، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه ... وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعلمة، وعناصر العقاقير والآلات، والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ... " [٢].

والمقدسي جاء إلى جزيرة العرب وتجول في حواضرها ومدنها الكبرى، ودون عنها تفصيلات قيمة[٣]. وبلاد الحجاز واليمن فازتا بنصيب الأسد في مدوناته، أما بلاد غامد وزهران، والمعروفة، أيضاً ببلاد السراة، فلم يرتدها أو يزرها وإنما أشار إليها عن طريق السماع وأقوال الرواة . وذكر أنها تقع ضمن بلاد السروات الواقعة بين اليمن والحجاز، بل عدها من المخاليف التابعة لبلاد الحجاز وبخاصة الطائف ومكة المكرمة[٤] . ومن خلال مدوناته عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في مكة المكرمة نستشف في طيات الحديث أن أهل بلاد السروات مثل غامد وزهران كانوا على اطلاع وصلات بالحراك الحضاري الذي كان جارياً في مدن الحجاز الكبرى. فكانوا على صلات اجتماعية وتجارية مع أهل الحجاز، بل كانوا يرتادون أسواق مكة والطائف ويعملون في العديد من المضاربات التجارية، فضلاً عن ممارسة شعائرهم الدينية في مواسم الحج والعمرة وطوال أيام السنة[٥].

---

(١) المصدر نفسه . ص ٢ وما بعدها، وللمزيد انظر: أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١ ـ ٢ .

(٣) المصدر نفسه . ص ١٠ وما بعدها . هناك العديد من الرحالين الذين جابوا أجزاء من جزيرة العرب وتحدثوا عن جوانب عديدة من تاريخها الحضاري، ومن أولئك الرحالة . الهمداني، واليعقوبي، وابن الفقيه، وابن خرداذبة، وابن رسته، وابن حوقل، والإصطخري، وابن المجاور، والإدريسي، وابن بطوطة وغيرهم . والمقدسي يأتي في مقدمة هؤلاء الرحالين المسلمين الأوائل.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ٧٠، ٨٨، ٩٦، ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٥) المصدر نفسه . ص ٦٧ ـ ١١٣ . الدارس لتاريخ اليمن والسروات والحجاز يجد أن هذه البلاد متقاربة في الأوطان متشابهة في الكثير من العادات والتقاليد . ثم إن حواضر الحجاز واليمن مرتادة من أهل المدن والأرياف القريبة أو المحيطة بها . والسرويون لا غنى لهم على الإطلاق من ارتياد تلك الحواضر الكبرى وبخاصة مدن الحجاز الرئيسية مثل: الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة فهي مرتادة من قبل السرو أو السرويون عبر عصور التاريخ .

٣.ناصر خسرو (ق٥هـ/١١م) :

ولـد هذا الرحالة في بلـدة قباديان من نواحي بلخ عام (٣٩٤هــ/١٠٠٣م)، وتوفي في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري (الحادي عشـر الميلادي) في بلاد الأفغان عند حدود كشمير من بلاد الهند[١] .

هذا الرحالة فارسـي الأصـل والمنشـأ، عمل في بلاط الدولتين الغزنوية والسلجوقية، وكان معظـم عملـه في دواوين هـاتين الدولتـين[٢] . خلف العديد من الكتـب، منها الكتاب الـذي يهمنا في مبحثنا هذا والموسـوم بـ (**رحلة ناصـر خسـرو**)، وهو رحلـة قام بها لعدة سـنوات (٤٣٧-٤٤٤هــ/٩٤٨- ١٠٥٢م) . ذكـر فيهـا الكثير من البلدان في قارتي آسـيا وإفريقيـا، وقـد زار الجزيرة العربية في عام (٤٤٢هــ/١٠٥٠) وتنقل ما بين مكة والمدينة والطائف واليمامة والأحساء والبحرين وغيرها[٣] .

وهذا الرحالة لم يزر سروات أو تهامة غامد وزهران، ولم يذكرها بشكل مباشر، لكنه ذكر البلاد الممتدة من الحجاز إلى اليمن فقال إنهم أهل إبل وماشية ومساكنهم الخيام[٤] . وأشـار إلى الأجزاء السروية وذكر أنها مناطق شديدة البرودة، وبها العديد من المضائق الجبلية والحصون المحكمة[٥] . وبلاد السروات وسراة غامد وزهران جزءاً من هذه الديار فقـد ذكـر أنـه يوجد بها قـرى كثيرة وبـواد لا تدخل تحت الحصـر، ثم قـال : " وفي كل بادية حاكم مسـتبد لا يخضـع لأي سـلطة مركزية، وتكثر في هذه النواحي السرقة والقتل والنهب"[٦] . ومن هذه الإشارات القليلة لهذا الرحالة خرجنا ببعض النتائج والآراء مثل:

١. منطقة الباحة (غامد وزهران) تقع ضمن هذه البلاد التي أشار إليها هذا الرحالة، ثم إن بعض سـكان هذه الديار أهل ماشـية وإبل، بل بعضـهم بدو رحل مع مواشـيهم وثرواتهم الحيوانية. كما أن مرتفعات زهران وغامد شـديدة البرودة في الشـتاء وبها العديد من الحصون والجبال الشاهقة[٧] .

---

(١) معين الدين ناصر خسرو . سفر نامة (رحلة ناصر خسرو) . ترجمه من الفارسية إلى العربية أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) . انظر: مقدمة المترجم، ص٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦ . وللمزيد انظر: غيثان بن جريس . بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ/١٦-٢١م) (دراسة تاريخية حضارية) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣) انظر كتابه : سـفر نامة (رحلة ناصر خسـرو)، ص٩ ومابعدها . للمزيد انظر: أحمد رمضان أحمد، الرحلة، ص ٢٣٩ ـ ٢٥٠ .

(٤) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٤٢ .

(٥) المصدر نفسه،

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٧) مشاهدات الباحث لهذه البلاد التي زارها مرات عديدة وبخاصة في عامي (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م و (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

٢. القرى في سروات غامد وزهران وما جاورها من السروات كثيرة ومأهولة بالسكان[١]. ثم إن سكان هذه البلاد كانوا في السابق محكومين من قبل شيوخ القبائل الذين يعود إليهم الأمر والنهي في أمور بلادهم. والدارس لتاريخ بلاد السراة منذ القرن (٣-١٢هـ / ١٨-١٩م) يجد أن الفوضى كانت ضاربة أطنابها في عموم هذه البلاد، فكل قبيلة مستقلة بذاتها، بل نجدها في صراع دائم مع القبائل والعشائر المخالطة لها في الاستيطان[٢].

وإذا كان ناصر خسرو لم يزر بلاد زهران وغامد وما حولها من السروات الممتدة من صنعاء حتى الطائف، إلا أن وصفه شيوخها بالاستبداد، وانتشار السرقة والقتل والنهب بينهم لا يخلو من الصواب، ويعود السبب إلى عدم وجود سلطة إدارية نظامية تضبط البلاد والعباد. وفي اعتقادي أنه لو زار أرض السروات فإنه بدون شك سيحفظ لنا صوراً من تاريخ هذه البلاد خلال العصور الإسلامية الوسيطة[٣].

٤. محمد بن أحمد بن جبير (ق٦-٧هـ / ١٢-١٣م):

هو ابن جبير البلنسي الأصل الغرناطي بالاستيطان ولد بمدينة بلنسية في الأندلس سنة (٥٣٩هـ أو ٥٤٠هـ / ١١٤٤م أو ١١٤٥م)، وكانت وفاته بمدينة الإسكندرية عام (٦١٤هـ /١٢١٧م). كان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وله مشاركات في الأدب. ترجم له العديد من المؤرخين والأدباء في القديم والحديث[٤].

ونستطيع القول بأن هذه الأوطان جديرة بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية الجادة. ونأمل أن تقوم جامعة الباحة بإنشاء مراكز بحثية تتولى أمور الدراسات الموثقة عن هذه البلاد البكر في ميدان البحوث العلمية التاريخية والأثرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

(١) إن الذاهب في هذه البلاد اليوم يلحظ تناثر القرى القديمة في كل مكان، بل يجد النقوش والآثار الكثيرة التي تدل على وجود مستوطنات سكانية قديمة، والتي يعود تاريخ بعضها إلى عصور ما قبل الإسلام.

(٢) تاريخ بلاد السراة في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة غير معروف بشكل واضح، مع أن هناك شذرات كثيرة في كتب التراث الإسلامي تشير إلى صور ولمحات من التاريخ السياسي والحضاري لهذه البلاد. والذي تأكد لنا من تلك الشذرات ومن بعض الروايات المتواترة أن الفوضى كانت صاحبة القدح المعلى في هذه الديار، فلا يوجد حكومة مركزية قوية تسوس الناس، وإنما شيوخ القبائل هم أصحاب القرار الأول والأخير في أوطانهم.

(٣) تاريخ بلاد تهامة والسراة الممتدة من صنعاء وزبيد جنوباً إلى الطائف ومكة المكرمة شمالاً لازال يحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية موثقة. ونأمل من الأكاديميين والمؤرخين الجادين في جنوبي البلاد السعودية أن يولوا هذه البلاد اهتمامات جادة في بحوثهم ودراساتهم. كما نأمل من طلاب وطالبات الدراسات العليا في جامعات: الملك خالد، ونجران، وجازان، والباحة، والطائف أن يركزوا في أطروحاتهم العلمية على بلادهم ومساقط رؤوسهم، أو أي جزء من بلاد تهامة والسراة الجديرة بالبحث والدراسة.

(٤) ترجم له كل من لسان الدين الخطيب في كتابه: الإحاطة في أخبار غرناطة، والقاسم بن يوسف التجيبي السبتي في كتابه: مستفاد الرحلة والاغتراب، والمقري في كتابه: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. وترجم له أيضاً المقريزي، وجرجي زيدان، والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، وكارل بروكلمان، وفؤاد سزكين، وزكي محمد حسن، وحسين نصار وغيرهم.

قـام بثـلاث رحلات إلى أجـزاء عديدة مـن إفريقيا، وآسـيا، وأوروبا، ثـم دون تلك الرحلات في كتابه المشهور بـ : **رحلة ابن جبير** .

بدأ أول رحلاته من الأندلس عام (٥٧٨هـ/١١٨٢م) متجهاً إلى بلاد المغرب ومصـر ثم الجزيرة العربية، كما زار ـ أيضـاً ـ كلاً من العراق والشـام وصـقلية، وأخيراً استقر به القرار في مصر حتى وافته المنية هناك في العقد الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[١]

والواضـح أن هـذا الرحالـة زار مكـة المكرمة والمدينـة المنورة، ولم يذهـب جنوبهما إلى أرض السـروات أو بلاد اليمن . والذي جعلنا ندرجه مـع الرحالين الذين ذكروا بلاد غامد وزهران، أنه دون في كتابه المعروف بـ (**الرحلة**) حوالي أربع صـفحات تحت عنوان (السـرو المائرون) . والمقصود بهؤلاء السرويون هم أهل البلاد الممتدة من الطائف وبني سـعد وبلحارث إلى غامد وزهران وشمران ومن جاورهم من القبائل السروية الواقعة بين الطائف ونجران[٢] .

وفي المادة التي دونها هذا الرحال عن السـرويين يتضـح لنا عدة أمـور نذكرها في النقاط التالية :

١. من العنوان الذي ذكره ابن جبير (السرو المائرون)[٣] . يتأكد لنا أن أهل السراة من غامد وزهران ومن جاورهم كانوا حريصـين على ارتياد حواضـر الحجاز وبخاصـة مكة المكرمة من أجل أداء الحج والعمرة، وكذلك حمل العديد من السلع للمتاجرة بها في بلاد الحرمين . وقد ذكر ابن جبير ذلك بشكل واضح عندما قال : " إنهم يجمعون بين النية والعمرة وميرة البلد[٤] بضـروب من الأطعمة كالحنطة وسـائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها . ويجلبون السـمن والعسـل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة . ويصـلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معايش أهل البلد، والمجاورين فيه"[٥] . ويقول أيضـاً : " ومن العجيب في أمر هؤلاء (السرو) المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا درهم،

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت : دار صادر، د . ت) . ص٥ وما بعدها، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص٣٢٣ـ٣٣٨ .

(٢) نجد الهمداني فصل الحديث عن هذه السروات، وللمزيد انظر، كتابه : صفة جزيرة العرب، ص ١١٩ وما بعدها.

(٣) انظـر ابـن جبير، الرحلة، صـ١١٠ . والدارسـ لتاريخ السـراة وعلاقة أهلها بالحجـاز يجـد أن العلاقات متينة ومستمرة منذ العصر الجاهلي وعبر عصور التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث والمعاصر . ونأمل أن نرى دراسات علمية أكاديمية جيدة ترصد تلك العلاقات التاريخية والحضارية منذ القدم حتى عصرنا الحديث

(٤) يقصد بـ (البلد) هنا : أي مكة المكرمة .

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١١٠ .

إنمـا يبيعونه بالخرق والعباءات والشـمل، وأهل مكة يعدون لهـم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم..." [١].

٢. من خلال مقابلة ابن جبير لبعض السرويين وسؤالهم عن أوطانهم اتضح له أنها بلاد " خصبة كثيرة التين والعنب واسعة المحرث وافرة الغلات" [٢]. وأثناء مشاهدته لأولئك السـرو قال عنهم: " القوم عرب صـرحاء حفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السـيرة المدنية، ولا سددت مقاصدهم السـنن الشرعية، فلا نجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية" [٣]. ويسهب الحديث في ممارساتهم عباداتهم عندما يكونون في جوار البيت الحرام [٤]. ثم يذكر بعض صفاتهم وشدة بأسهم فيقول: " ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها. وهم أهل بأس ونجدة، ولهم القسي العربية الكبار، لا تفارقهم في أسفارهم. فمتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق المسـكون للحجاج مقدمهم، وتجنبوا اعتراضـهم، وخلـوا لهم عن الطريق، ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم [٥] ..."

٣. ممـا أورد لنا هذا الرحالة ومعرفتنا الطويلة ببلاد السـراة الممتدة من غامد وزهران إلى الطائـف تأكـد لنا صـحة ماجاء عند ابن جبـير. فهذه البلاد مأهولة بالسـكان، مليئـة بالخيرات والـثروات الزراعية والحيوانيـة. كما أن أهلها أصـحاب قوة وبأس، وربما صـعوبة تضاريس بلادهم أكسبتهم القوة في أجسادهم، والصرامة في أفعالهم وأقوالهم. كما أنهم أصحاب عقائد صافية فلم يشب معتقداتهم أفكار هدامة، وإنما دينهم على مر التاريخ الإسـلامي الاتباع في القول والعمـل [٦]. ناهيك عن نقاء لغتهم فهـم أهل فصـاحة، وهذا ما أكده ابن جبير عندما قابـل البعض منهم فقال: "..أما فصاحتهم فبديعة جداً، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس.." [٧].

٥- جمال الدين يوسف بن يعقوب المعروف بـ (ابن المجاور/ق٧هـ/١٣م):

ابـن المجاور من رحـالي القرن (٧هـ/١٣م)، ويذكـر أنه من أهل الشـام، ورأي آخر

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) بـلاد السـراة لا زالت بحاجة إلى دراسـات علمية أكاديمية جيدة في طبائع الناس وأخلاقهم ومعتقداتهم وأدبهم ولغاتهـم. كما أن الصـلات بين بلاد السـراة وأرض الحجاز من الموضوعات الهامة والجديـرة بالبحث العلمي الأكاديمي الرصين.

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص١١٣.

ينسبه إلى بلاد فارس[١] . له كتاب بعنوان : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز. ويسمى أيضاً : تاريخ المستبصر . قام المستشرق أوسكار لوفغرين على دراسة وتحقيق هذا الكتاب ثم طبع ونشر بمطبعة بريل في مدينة ليدن بهولندا عام (١٩٥١م) ، وهذه الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة . وهذا السفر يقع في جزءين بمجلد واحد في (٣٠٣) صفحة من القطع المتوسط[٢] .

ومن عنوان الكتاب يتضح لنا أنه خاص ببلاد اليمن والحجاز، لكنه لا يخلو من بعض التفصيلات عن نجد والبحرين وبلاد السراة . ويبدو أن ابن المجاور لم يزر أو يشاهد سروات غامد وزهران وما جاورهما من أرض السروات الممتدة من أبها إلى الطائف[٣] ، لكنه أورد معلومات قيمة وذكر فيها بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية لتلك السروات فقال: " ... (إنها) قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، وكل قرية مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخوذ العرب وبطن من بطون البدو في قرية، ومن جاورهم لا يشاركهم في نزلها، ولا يسكنها أحد سواهم . وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل ساكن في القرية له مخزن في القصر يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزة وملكه، ولا يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيع . ويحكم كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ويحكم فيهم . وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون خراجاً، ولا يسلمون قطعة، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه، لا يزال القتال دأبهم، ويتغلب بعضهم على مال بعض، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن، وجميع زروعهم الحنطة والشعير وشجر الكروم والرمان، واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات، وأكلهم السمن والعسل . وهم في دعة الله وأمانه، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب "[٤]. وفي مكان

---

(١) من يطلع على كتاب هذا الرحالة والموسوم بـ: تاريخ المستبصر، يجد أن صاحب الكتاب ذا ثقافة ومعارف فارسية جيدة، وهذا مما يؤكد على أنه من أصول فارسية . للمزيد انظر: بشير إبراهيم بشير (ابن المجاور : دراسة تقويمية لكتابه : تاريخ المستبصر) . بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية . جامعة الرياض (الملك سعود) (٥-١٠ جمادى الأخرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٩م) . دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الثاني)، ص ٤١-٦٠ .

(٢) المصدر والمرجع نفسه .

(٣) من يطالع مادة الكتاب يجد أن هذا الرحالة زار العديد من حواضر الحجاز واليمن الرئيسية مثل الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وعدن، وصنعاء، وصعدة، وزبيد، ونجران وما جاورها، كما أنه سار على ساحل البحر الأحمر من الحجاز إلى تهامة اليمن . أما أرض تهامة والسراة الممتدة من أبها ورجال ألمع ومحائل جنوباً إلى بلاد الباحة وما حولها شمالاً فلم يرتدها وإنما دون عنها بعض المعلومات التاريخية والحضارية الجيدة . انظر كتابه : تاريخ المستبصر (تحقيق لوفغرين) ، ج١، ص٣ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٧-٣٨ .

آخر يصف التركيبة الاجتماعية لسكان سراة غامد وزهران وما جاورهم فيقول: ".. أما السرو فإنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشائخ منهم وفيهم، وهم بطون متفرقون ... "[١]. وعن الصلات الاقتصادية بين سروات زهران وغامد ومن جاورهم مع أهل مكة المكرمة نجد ابن المجاور يؤكد على ما ذكر ابن جبير من حركة التبادل التجاري بين الجانبين، وعن تصدير أهل السراة بعض سلعهم إلى أسواق مكة، فيقول: " .. فإذا دخلوا - أي السرويين - مكة ملئوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما يشابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة: حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمنا نكسب منهم القوت.. "[٢].

<u>ومما اطلعنا عليه في كتاب هذا الرحالة وله علاقة ببلاد السروات الممتدة من الطائف حتى بلاد عسير، استطعنا الوصول إلى بعض الرؤى والنتائج، ونذكر منها ما يلي:</u>

١. الواضح أن هذا الرحالة ذكر الكثير من طباع وحياة السرويين، وبخاصة سروات غامد وزهران وعسير وما جاورها. والمتجول في هذه البلاد يجد نسبة الحقيقة عالية فيما أورد ابن المجاور، وربما في بعض أقواله - وهي قليلة - نظر ويجب الوقوف عندها والتثبت من صحتها، لكن ما ذكره من الصعوبة نجده في مصادر أخرى[٣].

٢. أهمية بلاد السراة لحواضر الحجاز الرئيسية وبخاصة في الجانب الاقتصادي، فكانت جل الحبوب والمزروعات والحيوانات تصدر من أرض السراة إلى أسواق الطائف ومكة، ومن ثم يحصل السرويون على ما يحتاجونه من الأقمشة وغيرها من الأسواق الحجازية[٤].

٣. في بعض المواقع من الكتاب أشار هذا الرحالة إلى بعض العادات والأعراف التي يدعي أنها موجودة عند أهل تهامة والسراة. والمتأمل في بعض تلك الأقوال يجدها تتعارض مع منهج الشريعة الإسلامية، بل يجدها خارجة عن إطار الأدب والحشمة. ولهذا تجنبنا ذكرها أو إيراد أي شيء من هذه الروايات في هذه الدراسة، وذلك لأنها بعيدة عن الصواب، ومن يطالع بعض الكتب التراثية التي أشارت إلى تاريخ وحضارة هذه

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧. بلاد السروات غنية بثرواتها الزراعية والحيوانية، ومن ثم كانت أسواق الطائف ومكة المكرمة من أهم المراكز التجارية المستوردة لبضائع وسلع السرويين. هذا ما وجدناه في العديد من المصادر الإسلامية المبكرة، وكذلك في مئات الوثائق الحديثة والمعاصرة، بل شاهدناه وسمعناه من كثير من رواة وتجار القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٣) وبخاصة ما ذكر عن التركيبة البشرية لسكان السراة، وصلاتهم الحضارية مع أهل مكة. انظر، ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص ٢٦ - ٢٧، ٣٧ - ٣٨.

(٤) المصدر نفسه.

البلاد لا يجد أي شـيء من مغالطات هذا الرحالة. وربما يعود سبب إيرادها إلى أخذ معلوماته من أناس غير مثقفين ومنصـفين فيما ذكروه، أو أن هذا المؤلف تعمد إيراد تلك الروايات المكذوبة والبعيدة عن الحقيقة[١] .

٦ـ شهاب الدين أحمد بن فضل الله العُمري (ق٨هـ / ١٤م) :

ولد العُمري في دمشـق عام (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) ، وكانت أسـرته تتولى ديوان الإنشـاء بمصـر والشام في عصـر دولة المماليك، شب وعاش وتعلم شهاب الدين في مصر. وتتلمذ على عشرات العلماء، والقضاة، والأدباء، وتقلد العديد من الوظائف الحكومية جميعها في الأعمال الكتابية والديوانية، ولم يمتد به العمر فمات وعمره (٤٩) سنة . وقد ألف العديد من الكتب[٢] ، وفي مقدمتها موسـوعته الضخمة : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[٣]، وتقع في أكثر من عشرين مجلداً . وقد اعتمدنا في دراستنا على الجزء الذي سماه : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) [٤] .

والواضـح أن العُمري لم يقم برحلات إلى الجزيرة العربية كما فعل كلٍ من المقدسي، وناصـر خسـرو، وابـن جبـير، وابن المجـاور، وإنما ألـف موسـوعته نقلاً عن سـابقيه أو معاصـريه . والمتأمل في هذا الجزء الذي تعرض للحديث فيه عن الحجاز واليمن يجد أنه فصـل القول في التاريخ السياسـي والحضاري للقوى السياسـية والإدارية التي تتولى أمر الحجاز وبخاصـة في عصـر الدولة المملوكية (٦٤٨ـ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ـ١٥١٧م) [٥] . ولا نجد لسـروات غامد وزهـران وما جاورها من أرض السـراة كثير ذكرٍ في هـذا الكتاب، وإنما أورد عنها سطور عديدة، نقلاً عن بعض الرواة، فقال: " حدثني أبو جعفر بن غانم[٦]، إن

(١) القارئ لكتاب ابن المجاور يجده أورد الكثير من المغالطات عن بعض أعراف وتقاليد وعادات الناس في بلاد السراة واليمـن والحجـاز . بـل إن بعض من تلك الروايات لا يقبلها العقل أو الذوق الإنسـاني، ناهيـك أنه يكتب عن عرب مسـلمين يحتكمون إلى كتاب الله وسـنة رسـوله (ﷺ) . وإنني أنادي من على صـفحات هذا الكتاب إلى وجوب دراسـة كتابه دراسة تحليلية نقدية، وهذه مسؤولية المؤرخين المنصفين وطلاب وطالبات الدراسات العليا الجادين . للمزيد انظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص٢٦ وما بعدها .

(٢) لقد ألف العُمري حوالي (١٢) كتاباً، مثل: نفحة الروضـة، وسـفرة السفرة، ومختصر قلائد العقيان لابن خاقان، والشـتويات، والدعوة المستجابة، وذهبية العصر، ودمعة الباكي ويقظة الشاكي، والنزهة الكافية في معرفة الكتابة والقافية وغيرها .

(٣) هذا الكتاب موسوعة ضخمة تقع في مجلدات عديدة، ويعد هذا العمل من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك، رغم أنه لم يلق ما يناسبه من الشهرة . وقد وصفها الصفدي ـ معاصر العمري ـ بأنها " كتاب حافل ما يعلم أنه لأحد مثله " .

(٤) هـذا الجـزء بتحقيـق أيمـن فـؤاد سـيد، مـن مطبوعـات المعهـد العلمـي الفرنسـي للآثـار الشـرقية بالقاهرة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٧٠ . وموسوعة العُمري بشكل عام تحدثت عن ممالك إسلامية عديدة في قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا . ومن ثم فهي من المصادر الرئيسية التي لا يستغنى عنها أي باحث في تاريخ العصور الإسلامية الوسيطة .

(٦) لم نجد له ترجمة وربما كان من أهل الحجاز أو اليمن .

بلاد الشـرفاء[١] هؤلاء متصلة ببلاد السراة إلى الطائف، إلى مكة المعظمة، وأنها طريقه التي سـلكها في عوده من اليمن، وهي جبال شـامخة عليَّة، ذات عيون دافقة ومياه جارية، على قرى متصـلة الواحدة إلى جانب الأخرى، وليست للواحدة تعلق بالأخرى، لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم، لا يضـمهم ملك ولا يجمعهم حكم سـلطان، ولا تخلو قرية منها من أشـجار وعروشـ ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز، ولها مزارع أكثرها الشـعير، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر... وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها، يعضون على دينهم بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بهم، ويضيفونه مـدة مقامه حتـى يفارقهم، وإذا ذبحوا لضـيفهم شـاة قدمـوا له جميع لحمها ورأسـها وأكارعهـا وكرشـها وكبدها وقلبهـا، يأكل ما يـأكل ويحمل ما يحمل. وأهـل هذه البلاد لا يفـارق أحد منهم قريته مسـافراً إلى الأخرى إلا برفيق يسـترفقه منهـا ليخفره، وإلا فلا يأمن أولئك لعداوة بينهم وتفرق ذات بين..."[٢].

ومن هذا الوصف الذي أورد لنا هذا المؤرخ يتضح لنا عدة أمور نذكر منها :

١. التأكيد على أقوال ناصر خسرو وابن المجاور بأن هذه الديار السروية يعود أمرها إلى أعيانها ومشـائخها . كما أن الفوضـى وعـدم وجود الأمن ضـارب أطنابه بين أهلها، وذلك لعدم وجود سلطة سياسية رئيسية تسوس البلاد والعباد .
٢. وفرة الخيرات الموجودة في هذه البلاد وبخاصة المواشي والزروع والثمار وغيرها، كما أن صفات الكرم من طبائع أهل السروات فتجدهم يكرمون الضيف ويقدمون له كل ما في وسعهم. وهذه عادة لازالت سارية بينهم حتى اليوم . والقارئ في الوثائق التاريخية خلال القرون المتأخرة الماضـية يجدها مليئة بالحقائق التي تؤكد على كرمهم وحبهم لاستقبال الضيوف[٣] .
٣. القـارئ لهذه المـادة التي أوردهـا العُمري، وكذلك ابن جبير، وناصـر خسـرو، وابن المجـاور، ثم الذاهب الآيب في أرض السـروات، والحريص على مقارنة ما ذكر هؤلاء المؤرخين وما تعيشـه هذه البلاد في وقتنا الحاضـر يلمس حقيقة وصدق بعض الأقوال التي أوردها هؤلاء المؤلفين[٤] .

---

(١) المقصـود بـ (الشـرفاء) هنا: أي الأشراف الزيدون الذين اتخذوا من صعدة وصنعاء مقراً لإقامة دولتهم، الدولة الزيدية في اليمن . والتي كان لها صلات سياسية وعسكرية مع بلاد السراة الممتدة من نجران حتى غامد وزهران والطائف وما جوارها .

(٢) العُمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) تحقيق أيمن فؤاد، ص ١٦٧.

(٣) حبذا أن نرى بعض الباحثين الجادين الذين يدرسون عادات وتقاليد وأعراف بلاد غامد وزهران وما جاورها من أرض السروات . ومن يفعل ذلك فسوف يجد مادة علمية جيدة وبخاصة في وثائق القرون الثلاثة الماضية المتأخرة .

(٤) حبذا أن نرى دراسـات تاريخية وحضـارية مقارنة لبلاد السروات وبخاصة ما ذكر عنها في كتب التراث الإسلامي

٤. عقائد أهل السراة صافية لم تدنسها أفكار أو تيارات مذهبية منحرفة . ومن ثم نجدهم حريصون على أداء شعائرهم الدينية بطريقة شرعية صحيحة . والمتجول في عموم السروات من أبها وخميس مشيط إلى الباحة والطائف يجد آثار مساجدهم وأماكن عباداتهم، بل حبهم للحفاظ على شعائرهم ودينهم . وعندما ننظر في بعض الكتب التراثية والوثائق التاريخية ونسمع للأقوال والروايات الشفاهية يتأكد لنا صفاء عقائدهم منذ دخل الإسلام إلى بلادهم حتى وقتنا الحاضر[١] .

٧. ابن بطوطة (ق٨هـ / ١٤م) :

محمد بن عبد الله، المعروف بابن بطوطة، ولد في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب عام (٧٠٣هـ/١٠٣٤م) . جاب العديد من البلدان في قارات: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وزار الجزيرة العربية وحج عدة مرات، ومات عام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)[٢] . قضى هذا الرحالة في ميدان الرحلات (٣٠) عاماً اتصل خلالها بكثير من الملوك والسلاطين والأمراء والأعيان والوجهاء وعامة الناس . وفي منتصف القرن (٨هـ/١٤م) عاد إلى المغرب، وعكف على كتابة رحلاته وفرغ من تدوينها في (٣ ذي الحجة عام ١٣٥٦هـ/ ديسمبر ١٣٥٥م) ، وسمى تلك الرحلة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وهذا الكتاب هو الذي رجعنا له في هذا القسم .

وفي عام (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) زار ابن بطوطة المدينة المنورة ومكة المكرمة، وحج تلك السنة، ودون تفصيلات جيدة عن بلاد الحرمين[٣] . وفي عنوان جانبي سماه: مكة المكرمة وعادات أهلها، وفي هذه الجزئية أشار إلى السرويين الذين ذكرهم ابن جبير في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وابن المجاور في القرن (٧هـ/١٣م) وكيف كان قدومهم من بلاد غامد وزهران وما جاورها إلى مكة المكرمة، فيقول: " ... وأهل

المبكر، وما يوجد في الوثائق التاريخية الحديثة والمعاصرة غير المنشورة، وما يمكن مشاهدته أو سماعه من سكان هذه السروات . ومن يفعل ذلك فإنه بدون شك سوف يخرج لنا دراسة علمية أكاديمية موثقة وجيدة .

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة هذه السروات منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر انظر العديد من مؤلفاتنا مثل: دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ـ ق٤هـ / ق٦ـ ق١٠م) جزءان، والقول المكتوب في تاريخ الجنوب، أربعة مجلدات، ونجران دراسة تاريخية حضارية (ق١ـ ق٤هـ/ق٧ـ ١٠م) ، الجزء الأول، وعسير دراسة تاريخية حضارية (١١٠٠ـ ١٤٠٠هـ) . مع العلم أن بلاد تهامة والسراة لازالت تحتاج إلى جهود جبارة وجادة في مجالات البحوث التاريخية والأثرية. وهذه مسؤوليات الجامعات في جنوبي البلاد السعودية مثل: جامعات الملك خالد، والطائف، والباحة، وجازان، ونجران . ونأمل من القائمين على هذه الجامعات استشعار مسؤولياتهم تجاه هذه البلاد وبخاصة في مجالات البحوث والدراسات.

(٢) انظر : محمد (ابن بطوطة) . رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار . شرحه وكتب هوامشه طلال حرب (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ، ط٤، ص٧-١١ ، للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٦٦، والقول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير وجازان، والقنفذة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ، ج٤، ص ٣٥ـ٣٦ .

(٣) انظر ابن بطوطة، الرحلة، ص١٢٩ وما بعدها .

البــلاد الموالية مثل بجيلة[١]، وزهران، وغامد يبادرون لحضـور عمرة رجب، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسـمن والعسـل والزبيب والزيـت واللوز، فترخص الأسـعار بمكة، ويرغد عيشـ أهلهـا، وتعـم المرافق، ولولا أهل هـذه البلاد لكان أهل مكة في شـظف من العيش. ويذكـر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه المـيرة[٢] أجدبت بلادهم، ووقع الموت في مواشـيهم، ومتى أوصـلوا الميرة أخصـبت بلادهم، وظهرت فيها البركة، ونمت أموالهم. فهـم إذا حـان وقت ميرتهم وأدركهم كسـل عنهـا، اجتمعت نسـاؤهم فأخرجنهم. وبلاد السراة التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة، كثيرة الأعناب، وافرة الغلات، وأهلها فصـحاء بالألسـن، لهم صدق نية وحسـن اعتقاد. وهم إذا طافوا بالكعبـة يتطارحـون عليهـا، لائذين بجوارهـا، متعلقين بأسـتارها، داعين بأدعية تصـدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة. فترى النـاس حولهم باسـطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر، لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود. وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم. ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم. وذكر أن النبي(ﷺ) ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وقال: (علموهم الصـلاة يعلموكم الدعاء). وكفاهم شـرفاً وفخراً دخولهم في عموم قوله (ﷺ) (الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية). وذكر أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهمـا) كان يتحـرى وقت طوافهـم، ويدخل في جملتهـم، تبركاً بدعائهم. وشـأنهم عجيب كله. وقد جاء في أثر (زاحموهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً)[٣].

ونسـتنج من هذا الاقتباس الذي ذكره هذا الرحالة القدير، عدة أمور نذكرها في النقاط التالية:

١. ذكر ابن بطوطة بشـكل صـريح أن السرو أو السـرويين هم أهل غامد وزهران وبجيلة وما جاورهم من القبائل العربية السـاكنة في مرتفعات السـروات الممتدة من الطائف حتى بلاد عسير.

٢. أهمية بلاد السـراة للمكيين اقتصادياً، فكان السـرويون يصدرون حبوبهم وثمارهم ومواشـيهم إلى أسـواق مكة المكرمة. ومن ثم كانوا من التجار الرئيسيين الذين تقوم عليهم أسواق الحجاز وبخاصة في مدينتي الطائف ومكة المكرمة.

---

(١) بجيلة بطن عظيم ينسب إلى أمهم بجيلة، وهم بنو أنمار بن أراش بن كهلان من القحطانية، وكان ولا يزال بعض عشائر هذه القبيلة يعيشون في البلاد الواقعة إلى الشمال من قبائل زهران وإلى الجنوب من بلاد الطائف. جولات الباحث في هذه البلاد خلال عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) الميرة: طعام يدخر أو يجمع للسفر.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

٣. صـفاء عقائد أهل السـراة وصـدق نياتهـم في أداء عباداتهم وفي كتب السـنن بعض الأحاديـث التـي تؤكد هـذا القول . وهذا ابـن بطوطة ومن قبله ابن جبـير ينقلون ما شـاهدوه مـن شـعائرهم الدينية في الحرم المكـي . والذاهب الآيب في بلاد السـراة، وكذلـك الجامع لـتراث هذه الديـار يتأكد له صـحة معتقدهـم وخلوه مـن التيارات والعقائد الفاسدة[١] .

٤. حرصـ أهل السـراة رجالاً ونسـاءً على الاتصـال ببلاد الحرمين، بـل إنهم يتفاءلون ويتبركون في حياتهم العامة والخاصة بارتياد أرض الحجاز وبخاصة مكة المكرمة.

٥. شـدة بأسـهم وشـجاعتهم مع لطف معشـرهم وحسـن صـحبتهم وهذا ما أكده هذا الرحالـة عندمـا قال : " ... وإذا وردوا مكة هابت أعـراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم .. "[٢] .

٨ـ العباس بن علي الموسوي (ق١٢هـ/ق١٨م) :

العباسٍ بن علي بن نور الدين بن أبي الحسن المكي الموسوي، ولد وعاش في مكة المكرمة، تنقل سائحاً في العراق والهند واليمن من سنة (١١٣١ـ ١١٤٢هـ / ١٧١٨ـ١٧٢٩م)، واستقر في المخا سنة (١١٤٥هـ / ١٧٣٢م)، وعكف على جمع ما لديه من أوراق ثم دونها في رحلته المسماة : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، في مجلدين انتهى منه في (٤ شوال ١١٤٨هـ /١٧٣٥م)، وجعله هديه لوالي بندر المخا[٣] .

وفي شهر شـوال (١١٤١هـ/١٧٨٢م) انفرد هذا الرحالة بوصف الطريق من الطائف وأجزاء من السروات حتى وصل بلاد القنفذة ثم بندر اللحية في اليمن[٤] . وأشار إلى بعض النواحي في سراة وتهامة غامد وزهران [٥] ، ومنذ بدأ سائراً في أرض السراة قال : " ... ثم أتينا (السراة) وهي قرية[٦] . كبيرة وبها مزارع كثيرة ومياه غزيرة، وأشجار مثمرة، وحصـون شـواهق ... ثم أضاف : أقول (السراة) متصـلة إلى ديار بجيلة وزهران وعنز

---

(١) حبـذا أن نـرى أحـد مؤرخي تهامة والسـراة، أو أحد طلاب الدراسـات العليا في أقسـام التاريـخ بالمملكة العربية السعودية يتخذ الحياة العلمية والدينية خلال العصور الإسلامية المبكرة أو الوسيطة، أو الحديثة والمعاصرة عنواناً لأطروحته في درجة الدكتوراه . ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على دراسة علمية جديدة في بابها وفي محتوياتها .

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٨١ .

(٣) للمزيد انظر، خير الدين الزركلي . الأعلام . (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ص٦، ج٣، ص ٢٦٣، غيثان بن جريس . بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠ـ١٥هـ)، ص ١٦٩ .

(٤) المراجع نفسها .

(٥) المراجع نفسها .

(٦) قال هنا (قرية) والمفروض يقول: (قرى) لأن بلاد السراة من الطائف حتى بلاد غامد وزهران يوجد بها مئات القرى المتفاوتة في الصغر والكبر. مشاهدات الباحث أثناء عبوره هذه البلاد مرات عديدة خلال العقود الثلاثة الماضية .

وبني القرن وبني شبابة والمعافر[١]، وفيها قرى عظيمة وجبال ....."[٢]. واصل هذا الرحالة طريقه في أرض السروات عبر بلاد بني عدوان وبني سعد وبجيلة وأجزاء من بلاد زهران وذكر مواقع عديدة بحثنا عن تعريف لها في بعض المعاجم القديمة والحديثة فلم نجد لها ذكراً[٣]. ويأتي إلى عقبة ذي قين[٤]، فيقول: "...عقبة ما رأت مثلها في الطول عين، صعبة السلوك جداً، ويسلكها عرب يقال لهم (الغيمات)[٥]. وقد وصفهم وصفاً غير جيد، وربما كانت أقواله مبالغ فيها، وقال عنهم: ".. بأنهم يسكنون الكهوف إلى غير ذلك مما وصمهم به ..."[٦]. ثم يذكر أجزاء من تهامة عند نزوله من عقبة ذي قين، فيقول: "..... نزلنا من العقبة فأتينا أرض تهامة...وفي هذه الأرض أنواع الحيات والأفعوان مختلفة الأشكال والألوان، ونوع منها يسمى الفاسق كالليل ينشط بأنيابه، وينكز بأنفه ووسطه وذيله..."[٧]. ويذكر بعض القرى والأسر والعشائر في تهامة غامد وزهران، ويسير حتى يصل سوق الاثنين في تهامة زهران[٨]. ويأتي إلى قرية الخليف[٩].: وقد سماها قرية الشيخ الولي إبراهيم الخليفي، ووصف قبره، وذكر أولاده واصفاً إياهم بأنهم أهل سماحة ووقار وصلاح[١٠].

٩- موريس تاميزيه (ق١٣هـ/١٩م):

هذا الرحالة من أوائل الرحالة الأوروبيين الفرنسيين الذين رافقوا حملة محمد علي

---

(١) تعريف الموسوي هنا أقرب إلى الحقيقة، فبلاد السراة أرض واسعة مأهولة بالسكان كثيرة القرى والأماكن الاستيطانية المتعددة

(٢) انظر حمد الجاسر "مع الموسوي المكي في رحلته (٨): نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس". مجلة الفيصل. العدد (٢٣٠) السنة (٢٠) (شعبان/١٤١٦هـ)، ص ٣٥-٣٧.

(٣) ومن تلك المواقع الحدب، وهناك أكثر من مكان في بلاد غامد وزهران يعرف بهذا الاسم. وعتمة، وناصرة، والمخرة، ودار الشعاب، ودار الحباب. انظر، حمد الجاسر "مع الموسوي المكي ورحلته (٨) ..."، ص ٣٦. انظر أيضاً: علي بن صالح السلوك الزهراني. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد غامد وزهران) (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٧١، ١٢٤، ١٥٣.

(٤) لم أجد تعريفاً دقيقاً لهذه العقبة، وربما تقع في بلاد غامد وزهران.

(٥) حمد الجاسر "مع الموسوي المكي في رحلته (٨) ..."، ص ١٣٦.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه. وبلاد تهامة مشهورة بأنواع الأفاعي والحيات والعقارب والزواحف الخطيرة. وكذلك الوحوش والسباع المفترسة. وفي الماضي كانت هذه الكائنات تتواجد بكثرة في جميع نواحي تهامة. واليوم بعد أن انتشر العمران، وفتحت الطرق، وزاد التمدن بدأت هذه الكائنات تتلاشى بل بعضها انقرض فلا يوجد له ذكر أو أثر. مشاهدات الباحث وتجوله في بلاد تهامة منذ ثلاثين عاماً.

(٨) لا نجد تفصيلات دقيقة توضح لنا مكان هذا السوق ونشاطه التجاري خلال القرون الإسلامية الماضية. وربما كان يقع على مقربة من قرى الخلف والخليف المذكورة في التاريخ. للمزيد عن هذه القرى انظر الحاشيتين التاليتين.

(٩) الخُلَيْفَ: بضم الخاء وكسر اللام وسكون الياء بعدها فاء، قرية كبيرة من قرى قبيلة الجبر بتهامة زهران. تقع شمال قلوة على مسافة أربعة أو خمسة أكيال، ويسمى سكانها (المشاييخ)، ويقال أنهم ينتسبون إلى بني هاشم، ويسمون أيضاً بالفقهاء لأنهم يعرفون القراءة والكتابة في وقت كانت الأمية متفشية في سكان المنطقة. انظر: علي السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي، ص ٩٤.

(١٠) المرجع نفسه. وللمزيد عن بلدة الخليف الأثرية، انظر، أحمد عمر الزيلعي. الخلف والخليف آثارهما ونقوشهما الإسلامية (الرياض: مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٧هـ)، ص ١١ ومابعدها.

باشـاً على عسير عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) [(١)] . ولا نملك معلومات دقيقة عن بداية حياته، وأول من أشار إلى رحلته جاكلين بيرين الفرنسية في كتابها عن الرحالين الأوروبيين الذين زاروا الجزيـرة العربيـة [(٢)] . وكان عملـه كاتباً للبعثـة الطبية التي رافقت حملة الباشـا، وقام بتدوين يومياته بشـكل تفصـيلي[(٣)] . وكتاب رحلته الذي يهمنا في هذا القسم بعنوان: **(رحلة في بلاد العرب) الحملة المصـرية على عسـير (١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م)** . طبع لأول مرة باللغة الفرنسية في باريس عام (١٨٤٠م)، ويقع في جزأين تحت عنوان: **رحلة في الجزيرة العربيـة** . الجزء الأول يدور حول مرحلة دخـول الجزيرة حتى الحجاز. أما الجزء الثاني (٤٠٢) صـفحة فهو الخاص ببلاد عسـير وحملة محمد علي عليها، وقـد أعيدت طباعته في فينـا عـام (١٩٧٦م) [(٤)] . والجزء الثاني من هذا الكتاب ترجـم إلى اللغة العربية عام (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)[(٥)]، وهذه النسـخة المترجمة هي التي اعتمدنا عليها في هذا القسـم . والكتاب يقع في حوالي(٣٥٨) صـفحة من القطع المتوسـط مشـتملاً على مقدمة المترجم وفهارس أخرى، وفي (١٥) فصلاً يدون هذا الرحالة الأحداث السياسية والحضارية التي خاضـتها حملة محمد علي باشا فى عسير منذ خروجه من الطائف مرورا ببعض الأجزاء الشـرقية مـن بلاد غامد وزهران حتى بيشـة ثم أبها[(٦)] . وإذا كان جـل الكتاب يدور حول التاريخ السياسـي والحضـاري لبلاد عسـير في منتصـف القرن (١٣هـ/١٩م) [(٧)] ، إلا أن بعض الأجزاء الشرقية من منطقة غامد وزهران قد ورد ذكرها في هذا الكتاب[(٨)]، ووادي أو بلاد العقيق في ديار غامد حظيت بنصيب جيد في شروحات هذا الرحالة[(٩)] .

ووادي العقيق كان إحدى المحطات الرئيسية التي اتخذتها جيوش محمد علي باشا قاعدة للانطلاق نحو بلاد عسـير، بل إن بعض الأشـراف كانوا يتولـون إدارة بلاد غامد وزهران،

---

(١) للمزيد انظر غيثان بن جريس " إقليم عسير في عيون الرحالة الأوروبيين " بحث مقدم ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٨-١٠شعبان /١٤٢٠هـ الموافق ١٦/٨ نوفمبر١٩٩٩م) . ونشـر في كتاب الندوة : العرب وأوروبا عـبر عصـور التاريخ (بحوث ودراسـات) (القاهرة، ١٤٢٠هــ/١٩٩٩م)، ص ٤٠٩ وما بعدها، وللمؤلف نفسـه . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة : العويفي للنشر والإعلان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ١٦٥ .

(٢) انظـر جاكلـين بيريـن . اكتشـاف جزيرة العرب (خمسـة قـرون مـن المغامرة والعلـم) . ترجمة قـدري قلعجي (بيروت : دار الكتاب العربي، د . ت)، ص ٢٥١ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) انظر : ابن جريس، (إقليم عسير ..)، ص ٤٢٠ وما بعدها، للمؤلف نفسه، بحوث في تاريخ عسير، ص ١٢٨ .

(٥) ترجمة الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة، أسـتاذ التاريخ المشـارك سابقاً بجامعة الملك سعود . وعنوان الكتاب المترجم . رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير)(١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) (الرياض : مطابع وإعلانات الشريف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) .

(٦) المصدر نفسه . (النسخة العربية)، ص٢٨ وما بعدها .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه . ص ٩١ وما بعدها .

(٩) العقيق : واد وبلدة كبيرة تقع شرقي الباحة بمسافة (٤٥) كيلاً، وتبعد عن بيشة حوالي (٨٠) كيلو متراً . وهي حاضرة بادية غامد . والعقيق أيضـا منطقة زراعية خصـبة يزرع بها النخيل والعنب والرمان والمشـمش والحنطة والشـعير، وجميع أنواع الخضار . وتسوق منتجاتها الفائضة إلى الطائف ومكة . وتقع البلدة شمال وادي العقيق، وقد سميت باسم الوادي . ولهذا الوادي ذكر في بعض كتب التراث . انظر: السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

وكانوا على صلة حسنة بالعثمانيين . ومنهم الشريف منصور بن زيد الشنبري، الذي كان شيخاً لوادي زهران أيام حملة محمد علي، وقد ورد ذكر هذا الشريف في كتاب تاميزيه، وما قدم من مساعدات معنوية ومادية لجيوش الباشا، بل إن الشريف منصور نفسه كان على رأس ألفين من رجاله للمشاركة في الحملة[١]. وفي الكتاب معلومات جيدة عن تجمع بعض جيوش الباشا في وادي العقيق، واستعداداتهم، واستعراضهم، بل استقبالهم بعض الوفود والفرقة العسكرية التي كانت تتوافد على الجيش والقيادة العسكرية في ذلك الوادي[٢].

أما بلاد العقيق نفسها وأهلها فقد أشار إليها تاميزيه عند مجيئه إليها مع الجيش في (١٢ يوليو/ ١٣٨٤م)، تحت عنوان جانبي سماه : الإقامة في العقيق، فقال : " ... موقع العقيق يتكون من سهل زراعي فيه الكثير من مزراع النخيل، ومحاط بسلسلة من الجبال تمتد من الشمال إلى الشمال الغربي... وبأعلى أحد جبال العقيق الصغيرة بنيت قرية العقيق المتواضعة..."[٣]. ثم فصل الحديث عن إقامة جيوش الباشا في بلاد العقيق، مع ذكر بعض أسلحتهم وعتادهم وأجناسهم، وكيف تكيفوا مع طبيعة الأرض أثناء النزول والإقامة[٤].ويتحدث أيضاً عن قرية العقيق وأهلها فيقول: "... تتكون قرية العقيق الكئيبة من حوالي ثلاثين منزلاً نصفها مبني بالحجارة والنصف الآخر مبني بالآجر الطيني، ولها شكل مكون من ستة أقدام مربعة، وبعضها ليس له سقف، ومع هذا فإن الناس يسكنون بها... "[٥]. ويشير إلى أهل العقيق عندما وصلت جيوش الباشا إلى بلادهم فيذكر أنهم هربوا من منازلهم، ولم يبق إلا المرضى أو العبيد من النساء والرجال الذين يقومون بحراسة ممتلكات أسيادهم، ثم يصفهم عندما شاهدهم فيقول : " ... خرجوا لاستقبالنا في منظر مؤلم جداً، وملابسهم خرق رثة، بينما الأطفال عراة، والكبار يرتدون ملابس جلدية ... "[٦]. ويذكر أن أولئك العبيد الذين رأوهم في وادي العقيق كانوا من ذوي البشرة السوداء، وبعضهم كانوا أحراراً، لكنهم لايمانعون في بيع بعض أطفالهم، وقد عرضوا على تاميزيه شراء بعض الأطفال الصغار بثلاثة وأربعة ريالات فرانسي للفرد الواحد[٧].

ويشير تاميزيه إلى بعض الصور الاجتماعية التي شاهدها في وادي العقيق الغامدي، فيقول: " ... يتكون أثاث منازل العقيق من فراش واحد فقط يستخدم لغرضين، الأول للجلوس عليه في النهار، والآخر فراش لكل العائلة عند المنام، وتصنع النساء بطانيات من

---

(١) تاميزيه، الرحلة، ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاميزيه، المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤-١٠٥ .

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٥ .

(٦) المصدر نفسه، ١٠٥ .

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٥-١٠٦ .

الصوف الخالص الملون"[١]. ويقول أيضاً: "...رأينا بالقرب من القرية بناءً مربعاً يشبه القلعة قد هدمته السنون، وإلى الشمال الغربي من القرية توجد أبراج كثيرة مبنية على قمم الجبال، وذات لون رمادي، هذا النوع من الأبراج لا يستفاد منه إلا أثناء حروب البدو مع بعضهم، إذ أن رصاصات قليلة كافية لهدمها.."[٢]. ويشير تاميزيه إلى مناخ بلاد العقيق فالجو ليلاً يميل إلى البرودة، ودرجة الحرارة مرتفعة نسبياً في النهار، وذكر بعض الأشجار والنباتات التي شاهدها في الأجزاء الشرقية من الديار الغامدية[٣].

١٠ + ١١ـ السير كيناهان كورنواليس + روبن بدول (ق١٤هـ/٢٠م) :

هذان الرحالان إنجليزيان عاشا خلال القرنين (١٣ـ١٤هـ/١٩،٢٠م). الأول : كورنواليس (Cornwallis) أحد رجال الاستخبارات البريطانية، أرسلته حكومته إلى الشرق الأوسط من أجل تدوين تقرير عن أوضاعها التاريخية والحضارية، واستطاع أن يدون عنها معلومات قيمة في عام (١٣٣٥هـ/١٩١٦م)، رفعها إلى المكتب العربي التابع للمخابرات البريطانية في القاهرة[٤]. وقد أعيد طباعة هذا التقرير في لغته الرئيسية (الإنجليزية) ونشر في بعض المطابع البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية عام (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، وخرج في هيئة كتيب من القطع الصغير بعنوان: عسير قبل الحرب العالمية الأولى (.Asir Before World War1)، ويقع في (١٥٥) صفحة، ويحتوي على (١٧) فصلاً قصيراً، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا القسم[٥].

أما روبن بدول (R. Bidwall)، فليس رحالة بقدر ما هو أستاذ جامعي أكاديمي بجامعة كمبردج، وله العديد من الدراسات، وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية[٦]. وله

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠٩ . ونستطيع القول أن بلاد غامد وزهران جديرة بالبحث والدراسة وبخاصة في التاريخ الحضاري خلال القرون الماضية المتأخرة . ولازال هناك الكثير من الآثار والنقوش والوثائق والروايات الشفاهية التي تصب في خدمة البحث التاريخي لهذه البلاد . وجامعة الباحة عليها مسؤولية كبرى تجاه الأرض والناس فتدرس أحوالهم، وتنشئ مراكز بحثية علمية أكاديمية تقوم بالخدمات البحثية والاجتماعية تجاه المجتمع الغامدي والزهراني .

(٣) تاميزيه، ص ١١٦ ـ ١١٨ .

(٤) للمزيد عن هذا الرحالة، وعن وظيفة المكتب العربي الذي كان في القاهرة، وتابع للاستخبارات البريطانية، انظر: مديحة درويش . تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الأول من القرن العشرين (الرياض: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١١١ وما بعدها، غيثان بن جريس . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة : دار العويفي للنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص١٢٤ ـ ١٢٥ ، للمؤلف نفسه . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير، وجازان، والقنفذة) . (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) . ج٤، ص٣٧ـ٣٨ .

(٥) انظر النسخة الإنجليزية، PP . 7FF، وهذا الكتاب ترجم ترجمة شعبية إلى اللغة العربية، منذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م) . وهذه الترجمة متداولة بين أيدي الناس . ولم يحقق هذا الكتاب حتى الآن تحقيقاً علمياً، وهو جدير بالتحقيق والدراسة، بل يستحق إلى أن يكون موضوع رسالة ماجستير، ترجمة ودراسة وتحقيقاً . ومن المؤسف أن أحد أبناء منطقة عسير قد اعتدى على النسخة الشعبية المترجمة ونسبها إلى نفسه، وطبعها على هيئة كتاب في اليمن . وصارت هذه الطبعة متداولة بين أيدي الناس . ومن قام بهذا العمل فقد ظلم نفسه ، ونسب لشخصه عملاً لم يكن من تعبه أو جهده . (والله المستعان) .

(٦) للمزيد عن روبن بدول، انظر، كتابه : الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة عبد الله آدم نصيف (الرياض : د. ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٧ وما بعدها، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٤، ص٣٨ .

كتاب لازال باللغة الإنجليزية بعنوان: الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين، قام أحد الباحثين المعاصرين بترجمة الفصلين الثاني والعاشر من هذا الكتاب[١]، وهذه النسخة المترجمة لازالت مسودة أولية، ولم تنشر في هيئة كتاب حتى الآن، وجل مادة هذين الفصلين عن تاريخ بلدان وشخصيات في مناطق جازان وعسير والباحة، وهذه المسودة هي التي رجعنا إليها في هذا القسم[٢].

ونجد كورنواليس يورد تفصيلات جديدة عن المناخ والتضاريس وبعض التجارات في مناطق عسير، والباحة، والقنفذة، وجازان[٣]، ويذكر القوى السياسية التي كانت صاحبة النفوذ في هذه المناطق خلال الثلث الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ويشير إلى أن الإدريسي في جازان كان يمد نفوذه أحياناً إلى مرتفعات عسير وبلاد غامد وزهران. ناهيك عن الأجزاء التهامية فهو صاحب السلطة الرئيسية على منطقة جازان وما جاورها شمالاً حتى بلاد القنفذة[٤].

وعن بلاد غامد وزهران ذكر لنا بعض الشروحات المختصرة عن هاتين القبيلتين من حيث عدد سكانها، وأسماء شيوخها ومكانتها السياسية، وصلاتها مع الأتراك والأشراف والإدريسي[٥]. ونوه أيضاً ببعض أعلام هذه البلاد فذكر لنا منهم ستة هم: عزيز بن مشيط شيخ الأجزاء الحضرية من بلاد غامد، ومحمد بن عبد الرحمن شيخ الأجزاء البدوية في القبائل الغامدية، ومحمد بن علي من عشيرة بني كبير الغامدية وكان عضواً في البرلمان العثماني، وراشد بن جمعان شيخ الأجزاء الحضرية من زهران، وكان ذا علاقة حسنة مع آل عائض في عسير ومع الأتراك، ثم تحالف في نهاية الأمر مع الإدريسي، وسعيد بن عصيدان شيخ العشائر البدوية الزهرانية، ويذكر أنه كان محارباً مشهوراً ومتحالفاً مع الإدريسي، وصالح بن عجلة، وهو تاجر غني يسيطر على معظم التجارة ما بين غامد ومكة، وكان يتاجر في التبغ الذي كان يزرع منه كميات كبيرة في بلاد غامد[٦].

وفي موقع آخر من كتابه يشير إلى الطرق التي كانت تخرج من أبها إلى الطائف

---

(١) أ. د. إسماعيل محمد البشري، مدير جامعة الجوف حالياً، هو الذي قام بترجمة هذين الجزءين، ونأمل أن يسعى إلى ترجمة الكتاب كاملاً ونشره.

(٢) توجد صورة من هذين الفصلين المترجمين ترجمة أولية في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (قسم البحوث والدراسات غير المنشورة).

(٣) Cornwallis, 7-23.

(٤) المصدر نفسه. PP. 22 FF

(٥) المصدر نفسه PP. 22FF. وكما ذكرنا سابقاً، فهذا الكتاب يستحق الترجمة العلمية، ثم الدراسة والتحقيق الدقيقين على شرط أن يكون عملاً علمياً أكاديمياً جيداً. وحبذا أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية بهذا العمل العلمي.

(٦) المصدر نفسه PP .89 ,95 ,96,100,101,102

عبر جبال السـروات، وعند وصـوله إلى بلاد غامد وزهران ذكر بعض المحطات على تلك الطريق مثل: الباحة، وربما أن هذه البلدة هي مدينة الباحة الحالية، وذكر أنه شاهد فيها حوالي (٢٥٠) بيتاً، ثم أشـار إلى محطات أخرى تقع إلى الشـمال من مدينة الباحة مثل: مقتل الباشـا، ورهوة البر، والمندق، وعقبة عصـيدان . وذكر بعض المعلومات المختصـرة عن جغرافية هذه المحطات، وأشـار أيضاً إلى بعض المزروعات والخضروات والفواكه التي شاهدها في تلك النواحي[١] .

أمـا روبن بدول فقد نقل كثيراً من معلوماته من كورنواليس، وبخاصـة في حديثه عن بعض أعلام غامد وزهران، وشروحاته عن القبيلتين الغامدية والزهرانية، إلا أنه لم يكتف بما ذكر كورنواليس عن هاتين القبيلتين، وإنما رجع إلى بعض المصادر والكتب الأخرى التي أشارت إلى هذه القبائل[٢] . وكون تفصيلات بدول أشمل فسوف نقتبس بعض التفصيلات من مدوناته، فذكر موقع قبيلة غامد وما يحيط بها من القبائل، وأشار إلى أعداد مقاتليهم نقلاً من الرحالة بوركهارت[٣] . وتقارير أخرى فذكر أنهم يتراوحون بين (٥٠٠٠ ـ ١٠،٠٠٠) مقاتل، وهناك من قال أن عدد أفراد القبيلة حوالي (٦٠،٠٠٠) رجل، مع أن بدول رجح أن يكونـوا أكثر من ذلـك بكثير[٤] . ثم قال : "... الطريق الداخلي الواصـل بين أبها والطائف يشـق وطنهم الخصـيب والكثير المياه، والقبيلة منقسمة إلى قسـمين بدو ومستقرون[٥]... فالبدو ...أثرياء بجيادهم وإبلهم وأغنامهم ولا يخضـعون لأي سـلطة ورئيسـهم محمد بن عبـد الرحمـن[٦]... ورئيس العرب المسـتقرين عزيز بن مشـيط يتبع شـريف مكة ويزوره باسـتمرار، ويذهب عدد كبير من رجاله كل عام إلى مكة وجدة والطائف، ويعملون حمالين في موسـم الحج، ويمكثون هناك حوالي أربعة أشهر ويعودون بمؤن لباقي العام، كثير منهم يستثمرون مدخراتهم في شراء البنادق التي يشترونها من أحد السوقين الرئيسين، الرويس بالقـرب من جدة، أو نزلة بني مالك . كما يشـترون البنادق أيضـاً مـن رجال ألمع ..." [٧] . ويذكر أيضاً : ".... ولنسائهم شأن أكثر أهمية من غيرهم من معظم القبائل، ولهم قسمة

(١) المصدر نفسه، P . 124.

(٢) انظـر المسـودة المترجمـة مـن كتـاب بـدول، ص ٥، ٧، ٩، ١١، ١٦، ١٧، ٦١ـ ٦٥ . (ونسخة من هذه المسودة في مكتبة د.غيثان بن علي بن جريس العلمية (البحوث والدراسات غير المنشورة).

(٣) بوركهارت : هو جوهن لويس (١١٩٩ـ١٢٣٢هـ/ ١٧٨٤ـ١٨١٧م) سويسري الأصل عاش في بريطانيا وتعلم بها، ثم سافر إلى الشرق الأوسط وتنقل في بلادها، ودخل الإسلام، وله العديد من المؤلفات منها: رحلة إلى الجزيرة العربية، طبع في لندن عام (١٨٢٩م). انظر نجيب العقيقي. المستشرقون (القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٠م)، ج٢، ص٥٢ .

(٤) المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ٦١ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

متساوية في أشكال العمل اليدوي، ولهن رأيهن في المجالس القبلية[١]... وتغزل النساء الملابس والبطاطين من شعر البعير، ونظراً للهجرة السنوية إلى الحج، فإن القبيلة أكثر تحضراً من غالبية القبائل، ولها شهرة طيبة في الكرم والضيافة..[٢]. وفي صفحات أخرى يعدد عشائر قبيلة غامد الحضرية التي كان شيخها عزيز بن مشيط، فيذكر (٢٧) قسماً مع ذكر الشيخ أو النائب لكل فخذ وعشيرة[٣]. ويذكر أيضاً اسم البدو الذين كان شيخهم محمد بن عبد الرحمن، لكنه لم يشر إلى أقسام وعشائر البادية[٤].

كما تعرض بدول لقبيلة زهران، فذكر حدودها، والأقسام القروية والبدوية وشيوخها مثل: راشد بن جمعان وسعيد بن عصيدان، ثم قال عنهم: " منطقتهم خصبة وكثيفة السكان، إذ يقال أن القبيلة بأسرها تبلغ (٣٠،٠٠٠) رجل[٥]. ثم قال: "وزهران جنس مقاتل خالص ولا يتركون منطقتهم أبداً، عدا وقت الغارات، وهم يزرعون الأرض ويصبحون أغنياء من خلال ذلك، ولكنهم يحتقرون كل أشكال العمل اليدوي الأخرى.."[٦].

وعن بطون قبيلة زهران يذكر ست عشائر في القسم القروي مع ذكر شيوخهم أو نوابهم، والمشيخة الرئيسية في هذه العشائر تعود إلى راشد بن جمعان[٧]. أما الأجزاء البدوية التي تقع تحت مشيخة الشيخ سعيد بن عصيدان فذكر أيضاً سبع عشائر تأتمر بأمره، دون أن يذكر نواباً لتلك العشائر السبع[٨].

ونستخلص من أقوال هذين الإنجليزيين عدة نقاط نوردها على النحو التالي:

١. كورنواليس يعد المصدر الرئيس لبدول، مع أن الأخير وظف تجاربه البحثية في الرجوع إلى مصادر أخرى أشارت إلى قبيلتي غامد وزهران بشكل أوسع.
٢. ما دون هذين الباحثين مختصر جداً مقارنة بما ذكراه عن مناطق أخرى في جنوبي البلاد السعودية مثل جازان وعسير وغيرها. وربما وجود بلاد غامد وزهران إلى الداخل أو في الوسط من بلاد السراة كان سبباً رئيساً في تجاهلها أو عدم ذكرها بشكل مطول عند الرحالين وبخاصة الوافدين من خارج الجزيرة العربية، مثل: بدول وكورنواليس.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٢

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٤. وأعتقد أن هذا العدد غير صحيح لأن بلاد زهران أرض واسعة وعشائرها وبطونها كثيرة ومن ثم فهم أكثر من ذلك بكثير، حتى وإن كانت هذه الإحصائيات في النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٦) انظر المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ٦٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٨) المصدر نفسه، ص٦٦.

أو من الرحالة الحجازيين أو اليمنيين الذين كانوا يرتادون الطرق التهامية أو السروية الشرقية التي تمر عبر رنية وبيشة وغيرهما . ومن ثم فالأجزاء السروية مثل الديار الغامدية والزهرانية وما جاورها كانت في معزل عن المؤلفين وأرباب القلم[١] .

١٢ـ الشريف البركاتي (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

هو شرف بن عبد المحسن البركاتي، ولد في الحجاز عام (١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) ، عمل في حكومة الشريف حسين بن علي، وبعد زوال ملك الأشراف من الحجاز عمل في دولة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود[٢] . وقد دون رحلته الموسومة بـ : **الرحلة اليمانية**، وهي نتاج لرحلة الشريف حسين بن علي (أمير مكة) عندما خرج من الحجاز إلى أبها عبر منطقة الساحل عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م) من أجل فك حصار الإدريسي على أبها[٣] . ومادة الكتاب تدور حول المعارك العسكرية التي وقعت بين جيش الشريف حسين وجيوش الإدريسي، وانتهت بدحر الإدريسي ثم رجوع الشريف إلى الحجاز عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السراة[٤] .

وبلاد غامد وزهران لم يكن لها نصيب كبير في هذه الرحلة[٥] ، وإنما ورد فيها معلومات بعضها غير دقيق أو صحيح، فعن قبيلة غامد يقول البركاتي : " في الساعة العاشرة يوم الخميس الخامس عشر من شعبان سرنا ونزلنا في أعلى وادي رنية .. وهذه الديار لقبائل غامد من أهل الشرق .. وقبيلة غامد متفرقة، بعضهم قاطن بهذه الديار، والقسم الأعظم منهم قاطن بتهامة في الجهة الغربية من جبل الحجاز .. "[٦] . والحقيقة أن قبائل غامد لا تسكن رنية أو حتى أوديتها الرئيسية وإنما هي قريبة من بعض فروع واديي رنية وتربة بل بعض بوادي غامد تسكن في أعالي وادي رنية وتمتد غرباً وجنوباً إلى الباحة ثم الأجزاء التهامية في المخواة وغامد الزناد وما جاورها[٧] .

---

(١) وهذا الانعزال وصعوبة تضاريس أرض السروات جعلها قليلة الذكر عند المؤلفين وكتب التراث الإسلامي المبكر. والمتجول في هذه البلاد يشاهد الكثير من النقوش والآثار المتنوعة والجديرة بالدراسة . وإن بحثنا عن تاريخ هذه البلاد في مثل هذه المصادر، فقد نجد مادة علمية جيدة توضح لنا بعض التاريخ والحضارات التي عاشتها هذه البلاد منذ العصر الجاهلي إلى بدايات العصر الحديث والمعاصر.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن هذا الشريف انظر كتابه : الرحلة اليمانية . تحقيق عاتق بن غيث البلادي (بيروت : دار النفائس، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ، ص٥ وما بعدها ، ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٩٠ وما بعدها ، للمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٤، ص ٣٤٦ـ٣٤٧. وهذا الكتاب قام على تحقيقه ونشره أكثر من واحد، وقام بطباعته أكثر من دار نشر، وأول طبعة خرجت منه كانت في عام (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) ، وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على طبعة دار النفائس (تحقيق البلادي)

(٣) للمزيد من التفصيلات عن الإدريسي وحصاره مدينة أبها ، انظر، محمد العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ج٢، ص ٦١٩ ـ ٦٢٢، ٦٦٥، ٧٠٦ .

(٤) انظر كتاب : الرحلة اليمانية، ص ١٢ وما بعدها .

(٥) الكتاب يقع في (٢٠٥) صفحة من القطع المتوسط ... انظر الكتاب نفسه، طبعة دار النفائس (بيروت) .

(٦) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٩٩ .

(٧) مشاهدات الباحث وتجواله في بلاد غامد وزهران عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ، وللمزيد انظر : فؤاد حمزة، في بلاد عسير (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ، ص ٤٨ .

ويتحدث البركاتي في موقع آخر من كتابه عن قضاء غامد في عهد المتصرفية العثمانية في عسير (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/١٨٧٢-١٩١٨م) [١]، ويقول: " قائم مقامية غامد، ومركزها رغدان شمال النماص، وشرقي مرفأ دوقة التي هي على البحر الأحمر، ويتبعها من القبائل غامد، وهي قحطانية وعددها مائتان وعشرون ألفاً . وقبيلة زهران، وعددها مائة وخمسون ألفاً .. وهي واقعة في الحد بين متصرفية عسير ومدينة الطائف التابع لولاية مكة المشرفة، ويتبعها قبيلة المحلف وعددها أربعون ألفاً وهي قحطانية أيضاً .. " [٢].

والواضح من هذه النقولات التي وصلتنا من هذا الرحالة، ومن سير رحلته أنه لم يذهب إلى بلاد غامد وزهران على الإطلاق، وإنما سار في الذهاب إلى أبها من أجزاء تهامية تقع إلى الغرب من الديار الزهرانية والغامدية، وفي الرجوع إلى الطائف سلك سفوح السروات الشرقية عبر بيشة ورنية والخرمة، وهذه المواقع جميعها تقع إلى الشرق والشمال الشرقي من بلاد غامد وزهران . أما ذكره الإحصائيات السكانية عن الغامديين والزهرانيين فهي معلومات غير دقيقة وتحتاج إلى مصادر تثبيت، وربما حصل عليها من عامة الناس، أو من مصادر غير موثوقة . وقوله أن قبيلة المحلف تتبع لقبائل زهران وغامد فهذا قول غير صحيح، لأن قبيلة المحلف من شهران العريضة، وموطنهم بلاد بيشة[٣].

١٣- محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/٢٠م) :

الأستاذ رفيع من أهل مكة المكرمة، ذهب ضمن بعثة تعليمية إلى عسير عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، وتولى وظيفة مدير مدرسة رجال ألمع، ودون كتابه الموسوم بـ: **في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)**[٤]. جمع فيه بين منهجي الرحلة والبحث في كتب ومصادر أخرى[٥]. وهذا المعلم والرحالة سار من الحجاز إلى أبها عبر الطريق الشرقية لبلاد السراة، وقد اجتاز الخرمة ورنية وبيشة وخميس مشيط حتى أبها، كما تنقل في أجزاء عديدة من منطقة عسير، وسار إلى بعض القرى الجازانية[٦].

لم يثبت أن محمد رفيع زار بلاد غامد وزهران، ولكنه أورد عنها بعض المعلومات التاريخية الحضارية الجيدة التي سمعها أو قرأها في مصادر أخرى، فقال: " ... قبل أن

(١) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٩٩ .

(٢) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٢٣ .

(٣) مشاهدات الباحث وتجواله في مناطق الباحة وعسير خلال عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

(٤) طبع لأول مرة في مكتبة المعارف بالطائف (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، وهذه النسخة هي التي تم الرجوع إليها في هذه الدراسة .

(٥) للمزيد انظر المصدر نفسه، ص٤ وما بعدها .

(٦) محمد رفيع، في ربوع عسير، ص ١٠ وما بعدها . للمزيد عن هذا الرائد التعليمي في بلاد عسير، انظر بعض التفصيلات عنه في كتابنا : تاريخ التعليم في منطقة عسير، ج١، ص٥٨ - ٥٩، ٢٥٤ - ٢٥٦ . وهناك رواد عديدون ظهروا في مناطق عسير والباحة وغيرها خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) وهم جديرون بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .

يتيسـر لي طبع هذه الرحلة كانت الحكومة قد سـيرت في أواخر عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) بعثـة زراعية من بعض المختصـين لإرشـاد المزارعين من سـكان السـراة وغيرهم، وكان يشـارك البعثة في غايتها الأخ السـيد حسـن شـطا الخبـير الزراعي في مديريـة الزراعة السـعودية [١] . وقد أخبرني أنهم في أثناء تجوالهم في بلاد غامد من السـراة اطلعوا على أعداد وفيرة من أشـجار العتم، وتحقق لديهم أنه الزيتون البري، كما اطلعوا على أشـجار تسمى (الضرو) وتحقق أنه شجر الفستق البري . وذكر لي أنه من المتيسر الممكن تطعيم شجر العتم والضرو بأقلام من شجر الزيتون والفستق الثمريين فتنقلب الأشجار المطعمة إلى أشـجار تجود بالمحاصـيل الوفيرة من النوعين لأن أشـجار العتم والضرو الموجودة في السلسلة الجبلية من السراة تقدر بكميات وفيرة تتجاوز عشرات الألوف"[٢] .

ومـمـا سـمع وقرأ قولـه : " ... إن منطقة السـراة على اسـتعداد كامل لزراعة شـتى أنـواع الثمـار وأجودها، فقد جـاء في تقرير البعثة الأمريكية الزراعيـة التي جابت المملكة للدراسـة والاختبـار قولها : وزراعة الأنـواع الطيبة من الخوخ والمشـمش والبرقوق والتين والسـفرجل والعنب في هذه المناطق لا تكفي حاجة السـكان بالفواكـه الطازجة في أوقاتها وتجفيفهـا واسـتعمالها في الأوقات الأخرى فحسـب، بـل يمكن أن تمون الأسـواق البعيدة بالفواكـه الجافـة ... " [٣] . ونؤكـد علـى أن ما ورد في هـذه الأقوال عين الصـواب، فبلاد السراة من الطائف حتى غامد وعسير وقحطان وما جاورها تتمتع بمناخ جيد وبخاصة في فصـلي الصيف والخريف، كما أنه يوجد بها غطاء نبات جيد، ناهيك عن التربة والزروع والنباتـات والأشـجار والحيوانات التي توجد في هذه البلاد، فجميعهـا متوفرة، وفوائدها كثيرة . وتحتاج إلى من يرعاها والاستفادة منها[٤] .

---

(١) أسـرة آل شـطا من الأسـر الحجازيـة المعروفة، وفيها رمـوز عديدون كان لهم إسـهامات عديـدة في بناء المجتمع الحجازي، ومنهم : السيد صالح بن بكري شطا وغيره . انظر: محمد علي مغربي . أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري (جدة : مكتبة تهامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٦٣ ومابعدها .

(٢) انظر : محمد رفيع، في ربوع عسير، ص ٤٧ـ٤٨، حاشـية رقم (١) . والمتجول في بلاد السـروات من الطائف حتى بـلاد قحطـان ونجران يجد توافر ملايين الأشـجار والنباتات المتنوعـة في أحجامها وأشـكالها وفوائدها . وكتاب النبـات، للدينـوري مـن أهل القرن (٣هـ/٩م) في عدة مجلدات عن النبـات، وجل مادة تلك الأسـفار تدور حول أشـجار ونباتات أرض السـروات الممتدة من الحجاز إلى اليمن . ونقول أن الجامعات السـعودية المحلية في جنوبي البلاد السـعودية عليها مسـؤليات كبرى فتشـجع الباحثين ومراكز البحوث التي تدرس نباتات وأشـجار وحيوانات مناطـق الباحة وعسـير والقنفذة وجـازان ونجران، ويجب على هذه الجامعـات ألا تتقاعس عن الانخراط في هذه المشاريع العلمية البحثية المهمة .

(٣) يذكر رفيع في توصيـاته أن الحكومة السـعودية بجب أن تهتم بما ورد في هذا التقرير . ويشـير إلى أن هذا التقرير الخاص بالبعثة الأمريكية الزراعية في المملكة قد نشر في مطبعة مصر عام (١٩٤٣هـ)، والمعلومات التي أشار إليها في صفحة (١٨٤) من هذا التقرير . انظر : محمد رفيع، في ربوع عسير، ص٤٧ـ٤٨ .

(٤) هـذا مـا لمسـناه من خلال تجوالنـا في هذه البلاد منـذ أربعة عقـود . كما أن بعضـ البحوث والدراسـات العلمية والإنسانية قد أشارت أيضاً إلى الثراء الطبيعي والبشري لهذه الأوطان .

١٤ـ ولفرد ثسيجر (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

هـذا الرحالة الإنجليزي قـام بالعديد من الرحلات في بلـدان عديدة، ومنها جزيرة العـرب، جاء إلى أجزاء من بلاد تهامة والسـراة، فكتب من خلال المشـاهدات في جوانب عديـدة . كمـا حظـي برعاية وحمايـة الملك عبد العزيز بـن عبد الرحمن الفيصـل الذي منحه إذناً بالتنقل في المملكة العربية السـعودية . وقد أشار إلى ذلك في رحلته التي نشرت لأول مـرة باللغـة الإنجليزية عـام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م)، والمجلة الجغرافية التي تصـدر عـن الجمعيـة الجغرافيـة الملكية في لندن، هـي التي تولى نشـرها . وقام الدكتـور أحمد عمـر الزيلعـي بترجمة هـذه الرحلة ونشـرها في مجلة الـدارة، العدد (١) السـنة (١٤) عـام (١٤٠٨هـ /١٩٨٨م) [١]. وهـذه النسـخة المترجمة التـي اعتمدنا عليهـا في مبحثنا هـذا[٢]. ونجد ثسـيجر يرتاد مرتفعات عسـير من أبها إلى وادعة قحطـان وبعض أجزاء من جبال تهامة، ثم يعود أدراجه نحو الحجاز فيسـلك سروات عسير وغامد وزهران حتى الطائف[٣]. والحقيقة أن ما وصلنا من مدونات هذا الرحالة يأتي في مرتبة جيدة من حيث نـدرة المعلومات وجودتها، إلا أن بلاد زهران وغامد لم تجد عناية كبيرة عنده فقد مر بها سـريعاً، ولم يدون عنها تفصـيلات كثيرة مثلما فعل مع مناطق أخرى في تهامة وسـروات منطقة عسير، أو بلاد القفنذة وغيرها[٤]. ومما شاهد في ديار غامد وزهران قوله : " ... وبعـد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بلقرن وخثعم[٥]، دخلنا منطقة غامد التي تُدار مركزياً من الظفير [٦]. وهي قرية صـغيرة بنيت حولٍ قلعة، وسـوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شـدا الشامي الذي يشـكل إطاراً عند تهامة الوادي، لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشـكل ظاهر من أكثر قبائل الحجاز إكراماً للضـيوف[٧]. ولا توصد الأبواب بين

(١) انظر : مجلة الدارة، ص٩٣ـ ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصـدر نفسـه .كانت رحلة هذا الرحالة في جنوبي البلاد السعودية في عام (٦٥ـ١٣٦٦هـ/٤٥ـ١٩٤٦م) . للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٩٩ـ٢٠٠، المؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص ٣٦٣ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه .

(٥) بلقرن وخثعم من القبائل السروية التي تقع بين قبائل رجال الحجر من الجنوب وقبائل غامد وزهران من الشمال . وهي تستوطن السراة وأجزاء منها تعيش في الإصدار وعند سفوح السروات الغربية . والعشائر القاطنة في السراة تتبع إمارة منطقة عسير إدراياً . أما الأجزاء التهامية فتعود تبعيتها إلى محافظة القنفذة التي تراجع منطقة مكة المكرمة . مشاهدات الباحث وتجواله في هذه البلاد عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

(٦) الظفير : إحدى مدن بلاد غامد الرئيسية، وقد تنقل مركز الإمارة ما بينها وبين بلجرشي ورغدان، ومركز الإمارة اليوم في مدينة الباحة .

(٧) السائر في جنوبي البلاد السعودية يجد جميع قبائل وعشائر وبطون هذه الأجزاء تشتهر بالكرم والنخوة والشهامة . وقـد دون عنهـم ذلك في أكثر من مصـدر ورواية وتقرير. حبـذا أن نرى أحد الباحثـين الجادين فيدرس عادات وتقاليد هذه الأوطان المضيافة والمتنوعة في أعرافها ونظمها الاجتماعية والقبلية .

القبائل المضيافة، والضيوف يدخلون البيت إذا كان صاحبه خارج عنه، ويجعلون أنفسهم كأنهم في بيوتهم."[١].

١٥ـ حمد بن محمد الجاسر (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م) :

ولد حمد الجاسر تقريباً عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) ، في أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة في قرية البرود من إقليم السر الواقع جنوب القصيم من نجد . حفظ القرآن وتعلم الكتابة ثم انتقل إلى الرياض سنة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) وهو في الرابعة عشرة من عمره . لكن إقامته فيها لم تطل[٢]. عاد إلى الرياض عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) وقرأ على بعض مشايخ نجد . وفي عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) التحق بالمعهد السعودي في مكة المكرمة، وأكمل الدراسة فيه سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) . حاول نظم الشعر في وقت مبكر[٣]. وفي سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) عين مدرساً في ينبع وبعد سنتين عين مديراً للمدرسة، ثم تدرج في العمل حتى أصبح معاوناً لمعتمد المعارف في جدة[٤].

سافر الجاسر عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) إلى مصر للدراسة، والتحق بكلية الآداب في الجامعة المصرية، ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت دون إكمال دراسته فعاد إلى وطنه[٥]. عمل بعد ذلك في التعليم في الإحساء، ثم مشرفاً على مدارس أرامكو في الظهران، ثم مديراً للتعليم في نجد، ثم وكيلاً لمدير المعاهد والكليات العلمية، ثم مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض[٦].

اشتغل بعد ذلك بالعمل الصحفي، فأصدر في الرياض عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) العدد الأول من مجلة اليمامة، وكان يطبعها في مصر، ثم مكة، ثم لبنان، وأخيراً فكر في إنشاء مطبعة في الرياض عام (١٣٧٤هـ/١٩٤٥م) . وفي عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) تحولت المجلة الشهرية إلى أسبوعية[٧]. وفي عام (١٣٨١هـ /١٩٦١م) نقل امتياز اليمامة عن حمد الجاسر . وفي عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) كون هو وآخرون (مؤسسة اليمامة) وصدر عن هذه المؤسسة جريدة أسبوعية باسم (اليمامة) ، وكان الجاسر رئيسها[٨].

---

(١) ولفرد شيجر، النسخة المترجمة، ص١١١ـ١١٢ . وهذه العادة كانت منتشرة بين الناس إلى عهد قريب، واليوم فاض الخير على الناس وسارت تقاليد الضيافة تأخذ أساليب وأنماطاً متعددة في المكان والزمان .

(٢) علي جواد الطاهر " حمد الجاسر" . مجلة العرب، السنة السادسة، (شوال ١٣٩١هـ / ديسمبر ١٩٧١م)، مج٦، ص٤٤٦ .

(٣) المرجع نفسه . لم يكن حمد الجاسر شاعراً، وقد اعترف بذلك عندما قال : "ولا أدري هل لي أن أتحدث عن الشعر، ولست شاعراً ... أن لا أجد في نفسي ميلاً لقراءة كثير مما ينشر من الشعر الحديث، وليس العيب عيب ذلك الشعر، ولكنه عيبي أنا ... " . المرجع نفسه، ص٤٤٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٤٦ .

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٤٧ .

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٤٧ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٤٧ وما بعدها .

لم تطل صلة الجاسر المباشرة بمؤسسة اليمامة الصحفية، وإنما ترك العمل في تلك المؤسسة عام (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، وأنشأ لنفسه (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) واتخذ لها مركزاً في الرياض وفرعاً في بيروت لتسهيل عملية الطباعة . وكان أول عمل قامت به هذه الدار إصدار مجلة شهرية باسم (العرب) تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري(١) . صدر الجزء الأول منها في رجب سنة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، واستمرت تصدر حتى وفاة الشيخ حمد (رحمه الله) .

أما في مجال البحث والتأليف والدراسة والتحقيق فله عشرات، وربما مئات الكتب والدراسات العلمية الرصينة التي تصب في خدمة تاريخ وتراث وفكر الجزيرة العربية . ولسنا هنا بصدد سرد كل بحوثه ومؤلفاته فهي مشروع جبار يستحق العمل الدءوب من الجامعات ومراكز البحوث والمؤرخين واللغويين والمحققين . بل إن عشرات الكتب والرسائل العلمية الأكاديمية غير كافية لدراسة ما خلف لنا الشيخ العلامة حمد بن محمد الجاسر(٢) .

والجاسر من الرحالين المحدثين الذين زاروا منطقة الباحة . ففي عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) رحل من الحجاز إلى بلاد غامد وزهران، وأصدر عن تلك الرحلة كتاب قيم سماه : في سراة غامد وزهران(نصوص، مشاهدات، انطباعات)، ونشره من خلال داره، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، عام ١٣٩١هـ / ١٩٧١م)(٣) . والكتاب يقع في (٥٩٥) صفحة من القطع المتوسط . تنقل هذا الرحال في ربوع البلاد الزهرانية والغامدية، فذكر بعض أعلامها وقراها، وعشائرها وبطونها، وإمارتها والفروع التابعة لها في الأجزاء التهامية والسروية(٤) . كما أشار إلى المؤسسات الإدارية التي كانت في حواضر غامد وزهران، ولم يغفل عن ذكر بعضٍ المرافق الخدماتية مثل: إدارات الزراعة، والأوقاف، والمواصلات وغيرها. وذكر أيضاً الأطوال والمسافات بين القرى والمراكز الرئيسية في المنطقة (٥) . وعرج في حديثه على التعليم في المنطقة وأشار إلى انتشار المدارس (بنين وبنات) في كل أنحاء البلاد(٦) . أما الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الباحة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٨ . ويقول علي جواد الطاهر عن حمد الجاسر ومجلته " ... إن رجلاً واحداً، لا يعرف تاريخ ميلاده إلا تقريباً ... خرج من أعماق قرية ضائعة في طوايا جزيرة شاسعة، ينهض بمجلة رصينة راقية نادرة، يغذيها ويشبعها ويسمنها ورصيده قلمه، ويسهر عليها وماله من نصير، ويتقدم بها وما يكون لها من نظير..." . علي جواد الطاهر . " العرب في عامها العشرين " مجلة العرب، سنة (٢٠ / رجب وشعبان ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، مج٢٠،ص ١-١١ .

(٢) نشكر القائمين على مركز الشيخ حمد الجاسر، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز الذي أمر بإنشاء هذا المركز ورعايته . ونرجو من القائمين على هذا المركز أن يضاعفوا الجهود للاستفادة ودراسة كل ما حقق أو دون أو ألف الشيخ الجاسر.

(٣) انظر الكتاب نفسه، ص ١٢ وما بعدها :

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٣ وما بعدها .

(٥) المرجع نفسه، ص ٨٥ وما بعدها .

(٦) من يزور بلاد غامد وزهران يجد الوضع تطور في مجالات التمدن والحضارة، بل يجد كل مؤسسة إدارية تستحق دراسة مستقلة . ناهيك عن التعليم فقد قفز قفزات كبيرة ويستحق عشرات الدراسات . ونأمل من جامعة الباحة أن تضاعف الجهود في مجالات البحوث والدراسات التي تعود على مجتمع منطقة الباحة بالنفع والفائدة .

فقد حظيت هي الأخرى بنصيب جيد في دراسات الشيخ الجاسر، فذكر حوالي (٢٢) سوقاً أسبوعياً منتشرة في أنحاء المنطقة، كما أشار إلى بعض المعلومات عن بعض العادات والأعراف والتقاليد التي عرفها الغامديون والزهرانيون[١] . وأورد بعض التفصيلات عن قرى غامد وزهران، وذكر بعض الإحصائيات التي حصل عليها من أهل المنطقة، لكنها غير دقيقة وقد أشار هو نفسه إلى ذلك[٢] .

وفي عشرات الصفحات من الكتاب تحدث عن بلاد غامد وزهران كما وردت في بعض كتب التراث، فأشار إلى أنسابها، وموقعها في بلاد السراة، وعلاقتها بالسروات المجاورة. وأورد نصوصاً عديدة أشارت إلى بعض الأحداث السياسية والحضارية التي عرفتها هذه البلاد في عهود سابقة[٣]. كما ذيل كتابه بصفحات عديدة ذكر فيها بعض الاستدراكات وتصويب بعض الأخطاء الواردة في هذا السفر، ثم سرد العديد من الفهارس العامة التي تخدم كل من يرجع إلى هذا الكتاب[٤] .

وبعد مرور حوالي ثمانية عشر عاماً من رحلته إلى بلاد غامد وزهران نجده يعود إليها في (١٤٠٨/١١/٢١هـ الموافق ١٩٨٨م) كي يلقي محاضرة في مدينة الباحة ضمن البرنامج الثقافي الذي نظمته إمارة الباحة. وكان عنوان محاضرته: لمحات وانطباعات عن مشاهداتي في السروات[٥] .

أشار في محاضرته إلى رحلته السابقة للبلاد الزهرانية والغامدية، ثم ركز حديثه في نقطتين، الأولى : صراحة أنساب سكان السراة . والثانية : صفاء لغة أهل السراة [٦] . وأشار في المحور الأول إلى عموم القبائل السروية الممتدة من الطائف حتى بلاد شهران وقحطان، وكان حديثه على منوال منهج الهمداني أثناء عبوره أرض السروات ، ويشير إلى فصاحة اهل السراة، ويعلل سبب فصاحتهم بقوله : " .... وترجع فصاحة سكان السروات إلى كون بلادهم بعيدة عن الاختلاط بمن ليس عربياً ، فطرق القوافل التجارية، وطرق الحجاج الذين يأتون من خارج الجزيرة كلها لا تمر بهذه السروات، ومن هنا قل اختلاط أهلها بالأعاجم، فصفت لغتهم، وخلصت من العجمة .. "[٧] .

---

(١) حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٩ ـ ٣٥٠ ، أشار إلى من سكن السروات قبل الإسلام، ثم خروج قبائل الأزد من اليمن واستيطان بعضهم في أرض السروات، وهم سكانها اليوم . للمزيد انظر، المرجع نفسه، ص٣٥٥ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٩٥ وما بعدها .

(٥) نشرت هذه المحاضرة في مجلة العرب، سنة (٢٤) (رجب وشعبان / ١٤٠٩هـ / الموافق فبراير ومارس ١٩٨٩م)، مج ٢٤، ص ٥٨ ـ ٧١ .

(٦) للمزيد انظر : الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١١٩ وما بعدها، حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٥٨ وما بعدها، ابن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني "، مجلة الدارة، عدد (٣)، سنة (١٩) (١٤١٤هـ)، ص٧٦ ـ ١١١ .

(٧) الجاسر، " لمحات وانطباعات عن مشاهداتي في السروات " ص ٧٠ . ونقول إن دراسة لغة ولهجات أهل السراة جديرة بالبحث والدراسة . ونأمل من المتخصصين في أقسام اللغة العربية في جامعاتنا السعودية أن يلتفتوا إلى مثل هذا الموضوع الجدير بالبحث والدراسة . والهمداني أو الجاسر وغيرهما يتحدثون عن صفاء لغة أهل السراة قديماً، أما اليوم فقد اختلط سكان هذه البلاد بغيرهم، بل وفد إلى بلادهم أجناس غير عربية . بل إن التقنية

ومن خلال هذه المشاهدات الجاسرية استطعنا الخروج ببعض الرؤى والنتائج مثل:

١. إن وصول الأستاذ حمد الجاسر إلى سروات غامد وزهران في نهاية القرن الهجري الماضي كان كسباً لسكان تلك البلاد، فقد حفظ بعض التفصيلات التاريخية والحضارية الجيدة والجديدة.

٢. مزج الجاسر بين النصوص المنقولة من كتب التراث الإسلامي المبكر وبين ما شاهده أو استنتجه أثناء تجواله في تلك الديار.

٣. مدونات الجاسر من خلال انطباعاته ومشاهداته جديرة بالبحث والدراسة والمقارنة مع ما جرى في سروا ت زهران وغامد منذ تسعينيات القرن الهجري الماضي إلى وقتنا الحاضر. وحبذا أن نرى أحد الدارسين أو المؤرخين المتخصصين فيخرج لنا مقالة أو بحثاً علمياً تحليلياً عن كتاب: في سراة غامد وزهران، ويذكر ما ورد فيه من سلبيات وإيجابيات تصب في خدمة تاريخ الزهرانيين والغامديين.

١٦. علي صالح السلوك الزهراني (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م):

السلوك من مواليد قرية قرن ظبي ببلاد زهران عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، درس في الكُتّاب عام (١٣٧٠هـ/١٩٥٠م)، ثم أكمل دراسته في المدارس النظامية. بدأ حياته الوظيفية عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، و تدرج في العمل بوزارة الداخلية، قطاع الإمارات حتى وصل مدير عام بإمارة منطقة الباحة[١]. كان عضواً في كثير من اللجان والجمعيات والمؤسسات الإدارية والاجتماعية والخيرية[٢]. كما حصل على بعض الجوائز والتكريم على مستوى بلاد غامد وزهران، وعلى مستوى المملكة العربية السعودية[٣]. عمل في نادي الباحة الأدبي حتى صار نائباً لرئيس النادي[٤].

الحديثة غزت كل إنسان ودار، ومن ثم بدأت فصاحة هذه البلاد وغيرها تذوب، وأصبحنا نرى ونسمع ونشاهد انعدام الفصاحة والضعف اللغوي الذي يعيشه سكان هذه الأوطان ومن جاورهم من أرض السروات.

(١) نبذة مكتوبة وصلتنا من ابنه العقيد مهندس زهران بن علي السلوك في (١٤٣٣/٩/١٠هـ). وهذه النبذة توجد ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق الخاصة).

(٢) كان عضواً في لجنة مكافحة الأمية بالباحة، ساهم في تأسيس بعض الجمعيات التعاونية بمنطقة الباحة، وعضواً في الجمعية السعودية الخيرية للأطفال المعاقين بالرياض، وعضو لجنة أصدقاء المرضى، وعضو الجمعية التاريخية السعودية، وعضو مجلس منطقة الباحة من عام (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

(٣) فاز بالجائزة العلمية الأولى لعام (١٤٣١هـ/٢٠٠٩م) عن كتابه: وثائق من التاريخ، كما حصل على الجائزة التقديرية في مجال التأليف. والمانح لهاتين الجائزتين مشروع تواصل زهران خلال عام (١٤٢٦، ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٥-٢٠٠٩م). تم تكريمه ضمن الرواد المؤرخين السعوديين الأحياء الذين أصدروا كتباً في تاريخ الجزيرة العربية عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) أو قبله من قبل وزارة الثقافة والإعلام، وكان ذلك في معرض الرياض الدولي للكتاب عام (١٤٣٠هـ)، عن كتابه: المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران.

(٤) انظر ترجمته أيضاً في نهاية بعض مؤلفاته. كما وصلنا سيرة ذاتية مختصرة له من أحد أبنائه في (١٤٣٣/٩/١٠هـ). والأستاذ السلوك توفي أواخر عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) والله أسأل أن يحسن لنا وله الختام، وأن يجعل أعمالنا وأعماله خالصة نقية لوجه رب العالمين.

وفي مجـال البحـث والتأليف فهو يعد من الرواد المعاصـرين في هذا الباب . فله العديد من المؤلفات التي تدور في فلك تاريخ وحضارة بلاد غامد وزهران، ومنها :

١. المعجم الجغـرافي لبلاد غامد وزهران، عام (١٣٩١هـ/١٩٧١م) ، أصـدرته دار اليمامة والبحث والترجمة والنشـر لصـاحبها والمشـرف عليها حمد الجاسـر . وقد أعيد طباعة هذا الكتاب عام (١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ثم طبع للمرة الثالثة عام (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)[١] .
٢. الموروثات الشـعبية لغامـد وزهران، عام (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) في خمسـة أجزاء وقام على طباعته ونشره مطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة .
٣. له كتابان آخران الأول بعنوان : غامد وزهران (السكان والمكان) ، عام (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) . والثاني بعنوان : وثائق من التاريخ، عام (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) [٢].

وعنـد الاطلاع على كتب هذا المـؤرخ الزهراني، وجدنا كتابه المعجم قام على الرحلة والتجوال في ربوع منطقة غامد وزهران، ومن ثم رصد لنا معظم قراها ومعالمها الجغرافية البارزة . والقارئ لهذا المعجم يدرك التعب والعناء الذي واجهه هذا الباحث من أجل جمع مـادة كتابـه والتثبت من صـحتها [٣] . أما كتابـه الثاني: فهو موسـوعة في بعض الجوانب التاريخيـة الاجتماعية، وكل جزء من الأجزاء الخمسـة لفن من فنون الموروثات الشـعبية الغامدية والزهرانية . فالجزء الأول خاص بقصـائد الجبل واللبيني [٤] . والجزء الثاني لقصـائد العرضة في مناسـباتها المختلفة . والجزء الثالث في قصائد اللعب والمسحباني، والهرموج والعزاوي والسامر[٥] . والجزء الرابع الأناشيد الشعبية القاف . والحزء الخامس الأمثال والحكم . والقارئ لهذه الأجزاء الخمسة يدرك الجهد العظيم الذي بذله الأستاذ السلوك من خلال خبرته وتجواله في بلاده وجمع مادة هذا الكتاب القيم، فهو رصين ثري، بل إن صـاحبه صاحب فضـل كبير على أهله وبني جلدته في جمع وتدوين وحفظ جزء من تراثهم وثقافتهـم وأدبهم وفكرهم[٦] . والكتاب الثالث غامد وزهران (السـكان والمكان) فهـو يجمع بـين علمي التاريـخ والجغرافيا، وهو الآخـر كتاب قيم في مضـمونه وجوهره . أمـا الكتـاب الرابع : وثائق مـن التاريخ فهو كتاب تاريخي وثائقي جمع فيه صـاحبه مادة

(١) تم الاطلاع على هذا الكتاب في طبعته الثانية (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .
(٢) جميع كتبه متوفرة وموجودة في عموم المكتبات العامة، وبعضها تم طباعتها أكثر من مرة .
(٣) للمزيد انظر الكتاب نفسه في طبعاته الثلاث وما يشتمل عليه من مادة علمية جديدة تستحق الدراسة والإشادة . وجل مادة الكتاب قامت على المشاهدات والتجربة والروايات الشفهية والمكتوبة. وهذه مصادر رئيس وهامة في تدوين التاريخ .
(٤) هـذا الفـن الغنائـي عرفته بـلاد غامد وزهـران وما جاورها مـن البلـدان، ويسـتحق البحث والدراسـة من قبل المتخصصين في علوم اللغة وعلم الاجتماع وغيرها .
(٥) كل هذه الفنون عرفتها بلاد زهران وغامد ولا زالت تمارس في مناسباتها الاجتماعية حتى يومنا الحاضر. .
(٦) هذا الكتاب يسـتحق دراسـات علمية أكاديمية أطول وأعمق ونأمل أن نرى بعض أبناء غامد وزهران المبدعين المثقفين المتخصصين فيفردوا له بعض البحوث الأكاديمية الموثقة . وهذا من أقل واجبات السلوك على أبناء منطقته وبلاده.

علمية جديدة وقيمة، وحفظ لنا صوراً تاريخية وحضارية للمجتمع الغامدي والزهراني في العصر الحديث والمعاصر . والكتاب يشتمل على أربعة مباحث : الأول : يشتمل على نماذج من وثائق المعاهدات والاتفاقيات والأحلاف بين القبائل والقرى[1] . والثاني : نماذج من وثائق الأحكام والصلح التي كان يتم فيها حل النزاعات القبلية والقروية ونماذج من المبايعات والحجج أو الصكوك الشرعية[2] . والثالث : نماذج من وثائق المراسلات من الحكام إلى المشايخ والقضاة والأعيان، ومعظم هذه الوثائق تدور في زمن القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) [3] . والمبحث الرابع والأخير[4] : نماذج من وثائق الزكوات والجهاد قبل عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) وبعده . كما يحتوي على صور من وثائق تأسيس أول إمارة لغامد وزهران في عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، وكذلك أول ميزانية مالية لهذه الإمارة[5] .

<u>وبعد الاطلاع على هذه المؤلفات السلوكية، وما قام به مؤلفها من جمع وتدوين ثم طباعة ونشر خرجنا بالعديد من النتائج والتوصيات التي نذكرها في النقاط التالية :</u>

١. الأستاذ على السلوك اعتمد في جمع مواد كتبه على خبرته وتجربته وحياته مع أهله وفي بلاده . كما نذر نفسه التنقل والترحال في قرى وجبال وأودية ووهاد منطقة غامد وزهران حتى استطاع أن يخلف لنا هذا الكم الجيد من المادة العلمية القيمة .
٢. اتصال الأستاذ السلوك بالأستاذ حمد الجاسر في العقود المتأخرة من القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م)، كان اتصالاً مباركاً، فالأخير شجع الأول على التجول في عموم البلاد الزهرانية والغامدية، وأخرج معجماً جغرافياً يشرح ويوضح معالم هذه البلاد السروية والتهامية التي طواها النسيان قروناً عديدة . وقد كان الاثنان (الجاسر والسلوك) موفقان في إنجاز هذا المشروع منذ جمعت مادته ومراجعتها ثم طباعتها ونشرها . ومن ثم أصبح مصدراً هاماً لا يستغني عنه أي دارس أو باحث في تاريخ وتراث وحضارة منطقة الباحة .
٣. كوني أبحث في تاريخ وحضارة الجزيرة العربية وبخاصة جنوبيها منذ أربعة عقود، لم أعرف أشياء كثيرة من معالم بلاد زهران وغامد إلا عن طريق معجم الأستاذ السلوك . فهو فعلاً رجل رائد وله السبق في هذا المضمار.
٤. لم تشغله تكاليفه الاجتماعية والعملية من الإسهام في جانب آخر من جوانب العلم والمعرفة الخاصة ببلاده وأهله . وإنما التفت إلى عالم الفنون الشعبية التي عرفتها دياره، ومن ثم

(١) انظر الكتاب نفسه، ص٩ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه، ص ٧١ وما بعدها .
(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٧ وما بعدها .
(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٣ وما بعدها .
(٥) المرجع نفسه .

جمع لنا كماً هائلاً من التراث الثقافي والأدبي (الشعري والنثري) الذي عرفه ومارسه الغامديون والزهرانيون . ومن يطالع موسوعته الموروثات الشعبية فإنه يدرك أنه أمام قامة علمية وهبت نفسها لخدمة بلادها وأهلها ، بل يتأكد له أن ما احتوته موسوعته من تراث علمي وفكري يجب الإشادة به، بل يجب على أقسام اللغة والتاريخ والاجتماع والأدب في جامعة الباحة وغيرها من جامعات الجنوب أن توجه بعض أبحاث أعضائها وطلابها إلى دراسة هذه الموسوعة الجديرة بالاقتناء والدراسة والبحث والتحليل .

٥. الناظر إلى كتاب السلوك: وثائق من التاريخ، يدرك أن هذا الرمز السروي الزهراني يحمل بين جنبيه هماً وحباً لخدمة بلاده وذويه . فكان حريصاً على أن يظهر للقراء والباحثين مادة علمية خاماً من تاريخ أهله ووطنه، وهذا واضح وجلي من الوثائق الجديدة التي نشرها وأخرجها لأول مرة . ومن ثم فهذه الوثائق أصبحت مسؤولية الباحثين والمؤرخين المنصفين الذي يجب عليهم دراستها وتحليلها وذكر فضل من كان السبب في نشرها وخروجها عند المرة الأولى. كما أن كتابه: غامد وزهران.. السكان والمكان، لم يكن أيضاً بعيداً في الأهداف السامية التي حققها، وكان دائماً يسعى إلى تحقيقها من أجل خدمة بلاده .

٦. عندما استعرضت كل من خدم تاريخ وتراث وحضارة بلاد غامد وزهران، وجدت الأستاذ السلوك يتربع على عرش الريادة في العصر الحديث والمعاصر نعم ربما يقول قائل أنت بالغت في مدح الرجل وإطرائه، فأقول، والله يشهد على ما أقول، إنني لا أعرفه، ولم أقابله البتة، وإنما علمت من محبيه وبعض أقاربه أنه كان مريضاً في أحد مستشفيات الرياض منذ عشر سنوات . وقد انتقل إلى الدار الآخرة في نهاية عام (١٤٣٣هـ /٢٠١٢م) (رحمه الله) ، ولكن من وجهة نظري فإنني أراه من الرواد العظام، فلقد اطلعت على أعماله الأربعة السابقة الذكر، وأعمال غيره ممن كتبوا عن بلاد غامد وزهران . فوجدت عمله يمتاز بالدقة والجدة والشمولية، ولا نقول أن أعماله كاملة فالنقص والخطأ من أعمال البشر، لكنه عمل وألف عندما كان الناس في غفلة من أمرهم، فله منا الشكر، ونسأل الله عز وجل أن لا يحرمه أجر ما قدم في حياته، إنه على كل شيء قدير.

٧. من خلال الاطلاع على سيرة السلوك، وكذلك السؤال عنه في بلاده اتضح لنا أنه ذكر وكُرم من بعض الجهات المحدودة في منطقته، أو في الرياض أثناء إقامة معرض الرياض الدولي للكتاب عام (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) . ونقول من على صفحات هذا الكتاب أن الرجل لم ينل حقه اللائق به لا من أبناء جلدته في الباحة ولا من قبل الجهات المسؤولة عن الفكر والثقافة في بلادنا . ونناذي إمارة منطقة الباحة، وجامعة الباحة، ونادي الباحة الأدبي، وأمانة منطقة الباحة ونقول لهم إن هذا الرجل يستحق

التكريم من قبل هذه المؤسسات فيذكر اسم شارع باسمه في المنطقة، ويطلق اسمه على إحدى قاعات المحاضرات في النادي والجامعة وهذا من أقل الواجبات تجاه هذا الرجل، الذي قضى جزءاً كبيراً من حياته في البحث والتأليف .

٨. كما أن المؤرخين والمتخصصين من أهالي غامد وزهران وكذلك الباحثين في جامعة الباحة عليهم أيضاً مسؤولية تجاه هذا العلم الزهراني فتعقد بعض الندوات عن كتبه، وتعمل بعض البحوث والدراسات عن شخصه وإنجازاته العلمية والعملية . بل إن قسم التاريخ في جامعة الباحة، أو في أي جامعة أخرى يجب على أعضائه ذكر هذا الرجل والالتفات إلى مجهوداته العلمية، فيخصص عنه رسالة علمية أكاديمية لدرجة الماجستير أو الدكتوراه، وهو وإنجازاته العلمية جدير بهذه المشاركة والإسهام العلمي الأكاديمي .

٩. نرجو من أبنائه وأحفاده وطلابه ومحبيه أن لا ينسوه هم الآخرون فيخرجوا عنه دراسة أو كتاباً علمياً يجمع فيه أعماله وآثاره الاجتماعية والتاريخية والعلمية . وحبذا إذا كان لديه مكتبة ثرية بمحتوياتها أن تحفظ أو تصان من قبل أسرته أو ممن يحبه أو يوده، أو تُسلم إلى إحدى المؤسسات العلمية الرئيسية في بلادنا. وفي اعتقادي أن جامعة أو نادي الباحة أولى بحفظ وصيانة هذه المكتبة .

١٠. من المحتمل أنه له مسودات كتب جمع مادتها ودونها قبل أن يداهمه المرض، ونقول لأبنائه وأفراد أسرته حبذا أن يسلموها لأكاديمي أمين فيخرجها باسم أبيهم مع الحرص على حفظ حق صاحبها العلمي

١٧ـ عاتق بن غيث البلادي (١٤١٥ـ١٥هـ / ٢٠٢١ـ٢٠م) :

هذا الرحالة حجازي الأصل والمولد زار العديد من مناطق المملكة العربية السعودية، ودون العديد من كتب الرحلات [١] . ومؤلفه الذي يهمنا في هذا القسم، هو: بين مكة وحضرموت (رحلات ومشاهدات) من مطبوعات دار مكة للنشر والتوزيع عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) [٢] . هذا الكتاب يقع في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع المتوسط، وهو رحلة قام بها المؤلف في شهر شعبان عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) إلى كل من سروات الطائف والباحة وعسير ونجران، واستغرق خلالها حوالي (٨) أيام سجل فيها الكثير من التفصيلات التاريخية والحضارية[٣] .

---

(١) للمزيد عن هذا الرحالة انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٢ ص ٢١٤ـ٢١٧ . ج٣، ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) عاتق البلادي، الكتاب نفسه، ص٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه .

وفيما يخص بلاد الباحة (غامد وزهران)، وجدنا هذا الرحالة يدون لنا فقط حوالي خمس صفحات شملت بلاد زهران وغامد من دخولها من الشمال إلى الجنوب، وعند قراءة هذه المدونات العاتقية استطعنا الخروج ببعض النقاط الرئيسية التي نذكرها في البنود التالية :

١. البلادي لم يبذل جهداً كبيراً للتنقل في أرجاء غامد وزهران وتدوين ما يمكن تسجيله من خلال الانطباعات والمشاهدات . ولو فعل ذلك لكان زودنا بمادة علمية قيمة تشمل طبيعة المكان وحياة السكان .
٢. منذ دخوله بلاد زهران من الشمال حتى خرج من بلاد غامد نحو الجنوب ذكر فقط خمس قرى رئيسية تخترقها الطريق الرئيسية التي تخرج من الطائف حتى أبها ونجران. وهذه القرى هي: قريش الحسن، الأطاولة، رغدان، الباحة، وبلجرشي . الاثنتان الأوليان في بلاد زهران، والثلاث الأخرى في بلاد غامد[١] . كما ذكر توفر المدارس وبعض المؤسسات الإدارية في بعض هذه القرى مثل: الباحة وبلجرشي[٢] . وأشار إلى وجود بعض المواشي والمحلات التجارية والمنازل المكونة من طابق واثنين وثلاثة في عموم هذه القرى الخمس[٣] . وذكر أيضاً أهمية بعض هذه القرى تاريخياً مثل رغدان وبلجرشي التي كانت مراكز إدارية لبعض القوى السياسية في المنطقة خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) [٤] .
٣. من النصوص التي أوردها عن بعض هذه القرى، قوله عن قرية (قريش الحسن) " .... هذه قرية أهلها قريش، سميت بهم، وكثير من قرى الجنوب تسمى بأسماء القبائل التي تسكنها .."[٥] وقال عنها أيضاً : " .... وهذه البلدة فيها حركة تعمير ظاهرة، وبها قصور حديثة البناء بالأسمنت المسلح.."[٦] . وقال عن قرية(الأطاولة) : " .. هي متقدمة عمرانياً وزراعياً، وشوارعها معبدة، وبها مدارس وشرطة ومحكمة، وكل مرافق الدولة. والبيوت الحديثة ذات الطوابق المتعددة تغلب على بنائها ..."[٧] . وقال عن بلجرشي: " .. هي مدينة جميلة بين تلال خضر، وحركة العمران فيها نشطة، وهي ثاني مدينة في بلاد غامد.."[٨] .

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١-١٥ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣-١٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١١-١٥ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣-١٤ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١٢ . ودراسة أسماء القرى والبلدات والعشائر والبطون في بلاد السراة جدير بالبحث والدراسة وبخاصة في مجال الأنساب، والأسماء والمدلولات وغيرها .
(٦) البلادي، المصدر نفسه، ص ١٢ .
(٧) المصدر نفسه، ص ١٢-١٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٤ .

٤. جاء البلادي إلى الديار الزهرانية والغامدية في بداية القرن (١٥هـ/٢٠م)، وقد دخلت البلاد طريق التنمية والعمران، وكان عليه أن يفصل الحديث عن التطور الحضاري الذي تعيشه هذه البلاد في ذلك الزمن. ولو مكث بعض الوقت في القرى الخمس المذكورة، أو حرص على الالتقاء ببعض الأعيان والوجهاء وأصحاب القرار في المنطقة فإنه بدون شك سوف يكون حصل على مادة عليمة جديرة بالتدوين. ومن يذهب إلى بلاد زهران وغامد ويتجول في قراها وبواديها وجبالها وأوديتها فسوف يشاهد تاريخاً متنوعاً يستحق الحفظ والتدوين[١].

١٨. عبد الرحمن صادق الشريف (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م):

الأستاذ الشريف من الأكاديميين الجيدين الذين عملوا في قسم الجغرافيا في كلية الآداب بجامعة الملك سعود لسنوات عديدة[٢]. أصدر دراسة بعنوان: جغرافية المملكة العربية السعودية، في جزءين [٣]. الجزء الأول خصصه لجغرافية المملكة بشكل عام فناقش فيه المعالم الطبيعية المؤثرة في حياة السكان، ثم الملامح البشرية الاقتصادية في المملكة، وأخيراً أوجز الحديث عن وسائل النقل الحديثة في البلاد السعودية[٤].

أما الجزء الثاني فأفرده لإقليم جنوب غرب المملكة، وناقش فيه الكثير من الأوضاع الجغرافية والحضارية في كل من جازان، وعسير، والقنفذة والباحة ونجران[٥]. والجميل في هذه الدراسة أن مصادرها قامت على الرحلة والتجوال، وكذلك الرجوع إلى المصادر والمراجع المكتوبة التي أشارت إلى هذه البلدان الجنوبية. كما أن الذي قام بهذا العمل هو أستاذ أكاديمي يعمل في أروقة الجامعات منذ زمن طويل، وبالتالي فهو على دراية بأدوات البحث العلمي الذي طبقه في كتابه أثناء دراسة طبيعة وسكان هذه البلاد[٦].

وفي حوالي أربعين صفحة تحدث الشريف عن منطقة الباحة، وبدأ بالأجزاء التهامية الواقعة في محيط محافظتي المخواة وقلوة[٧]. ثم واصل شروحاته على الأجزاء السروية

---

(١) نأمل من جامعة الباحة أن تسعى إلى حفظ تاريخ منطقة غامد وزهران سواءً كان موجوداً في كتب مطبوعة أو وثائق غير منشورة، أو نقوش ورسوم متناثرة في أنحاء المنطقة، أو أقوال وروايات مدونة وشفهية. وإن فعلت ذلك فإنها سوف تسدي للزهرانيين والغامديين فضلاً كبيراً.

(٢) الدكتور الشريف، أستاذ في علم الجغرافيا، عمل بجامعة الملك سعود منذ نهاية القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م) حتى العقود الأول من القرن (١٥هـ/٢٠-٢١م).

(٣) الجزء الأول من مطبوعات دار المريخ في الرياض عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). والجزء الثاني مطبوع في نفس الدار عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(٤) انظر الجزء الأول، ص٣ وما بعدها.

(٥) انظر الجزء الثاني، ص ٣٣ وما بعدها.

(٦) هذا ما يلمسه القارئ أثناء فحص هذا الكتاب ودراسته.

(٧) الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص ٢٣١-٢٤٤.

الجبلية، وكذلك السفوح الشرقية من سروات غامد وزهران فذكر بلاد بلجرشي، ومقاطعة الباحة، وسـراة زهران، مع إيراد تفصيلات كثيرة عما تشتمل عليه هذه البلاد من معالم طبيعة وتركيبات سكانية[١] . **وقد خرجنا ببعض الخلاصات والنتائج على هذا الكتاب، نسردها في النقاط التالية** :

١. معظم المادة المدونة عن منطقة الباحة قيمة وجديدة في محتوياتها، و صاحبها مشكوراً قد زار البلاد الغامدية والزهرانية، ودون ما شاهده في ربوعها، بالإضافة إلى اطلاعه على كثير من الإحصائيات والسجلات والوثائق والمصادر التي ترفد أقواله ومشاهداته.
٢. شـرح الكثير من التركيبـات الطبيعية لمنطقة الباحـة، فذكر أشـهر أوديتها وجبالها وهضابها ومعالمها الجغرافية التي امتازت بها في معظم نواحيها.
٣. أشـار في مواطن عديدة إلى القرى والبلدات وأماكن الاستيطان الرئيسية في المنطقة، وذكر بعض الإحصـائيات السكانية لبعض القرى والحواضر. وأورد أحياناً تفصيلات جديدة عن الأعمال والمهن المتنوعة التي يمارسها سكان المنطقة.
٤. ذكر بعض المؤثرات التي طرأت على طبيعة البلاد البشرية نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصـادية، وأشار إلى تقهقر النشـاطات الرعوية وبخاصة عندما أصبح كثير من أهـالي البـلاد يهاجرون مـن أوطانهم إلى مدن وحواضـر كـبرى في المملكة من أجل الحصـول على مكاسب تعليمية ووظيفية أفضل من حياتي الرعي والزراعة التي كانوا يمارسونهما في مواطنهم الرئيسية .
٥. مع أن الشـريف متخصـص في علوم الجغرافيا، إلا أننا نظرنا إليه رحال قام بالعديد مـن الرحلات في المملكة العربية السـعودية . وكانت منطقـة الباحة قد حظيت ببعض اهتماماته ومدوناته وجولاته .
٦. شـاهد الكثير مـن صـور التنمية التي عاشـتها منطقـة الباحة في بداية هـذا القرن (١٥هـ/٢٠م) . ودون لمحات مما رأى، وكنا نتمنى أن يكون قد أسـهب في مدوناته عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والفكرية[٢] .

١٩ـ علي حافظ (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م) :

ولـد في المدينـة المنورة عـام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ودرس في مدارسـها، ثم التحق بالدراسـة في المسجد النبوي عدة سـنوات . تدرج في العديد من الوظائف في المدينة فبدأ كاتباً في قسـم المحاسـبة بمديرية المالية في المدينة المنورة، كما عمل في مؤسسـات إدارية

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٥٠-٣٧٤ .

(٢) نأمـل أن نرى بعض المتخصصـين في التاريخ والجغرافيـا والتربية وعلم الاجتماع بجامعة الباحة يقومون بدراسـة المجتمعات الزهرانية والغامدية، ويقارنون بين ما تعيشـه البلاد في عصـرنا الحاضـر، وبين أوضـاعها في العصور القريبة الماضية . ومن يفعل ذلك فسوف يرى التطور الهائل الذي ومرت به خلال الخمسين سنة الماضية .

أخرى وكان آخرها رئيساً لبلدية المدينة المنورة حتى عـام (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ثم تفرغ لأعماله الخاصة والكتابة[١].

أسس مع أخيه السيد عثمان علي حافظ جريدة المدينة المنورة حتى عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م). شارك في العديد من الخدمات الاجتماعية التطوعية، وقدم بعض الأوراق في بعض المؤتمرات والندوات العلمية. اختير عضواً في مؤتمر الأدباء السعوديين المنعقد بجامعة الملك عبد العزيز عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ومنح العديد من الجوائز، وكُرم في بعض المحافل المحلية والإقليمية[٢].

له عدد من المؤلفات مثل: فصول من تاريخ المدينة، عام (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)، وأعيدت طباعته في عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، وله مجموعة المقالات التي نشرتها له جريدة المدينة من عام (١٣٥٦-١٤٠٥هـ / ١٩٣٧-١٩٨٤م)، وبحث عن الإسلام في شعر شوقي، قدمه لمؤتمر الأدباء السعوديين الأول عام (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)، وكتيب عن نخيل المدينة المنورة، وديوان باسم أولادنا، والكتاب الذي يخصنا في دراستنا هذه، بعنوان: أربعة أيام في منطقة الباحة، من مطبوعات شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر بجدة عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)[٣].

نجد ابن حافظ يذهب مع بعض زملائه الحجازيين في زيارة إلى منطقة الباحة لمدة أربعة أيام[٤]. (١٦-١٩/ المحرم ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م)، وذلك من أجل زيارة صديقهم أمير بلاد غامد وزهران آنذاك إبراهيم بن عبد العزيز بن إبراهيم[٥]. وفي تلك الزيارة ذكر علي حافظ كيف رأى وشاهد بلاد الباحة وحفظ لنا بعض المدونات التاريخية الحضارية لهذه المنطقة ونشرها في جريدة المدينة في حلقات متتالية، ثم جمعها أيضاً في كتابه: أربعة أيام في منطقة الباحة، فجاءت في (١٢٣) صفحة من القطع المتوسط[٦].

بدأ هذه الرحلة بنبذة مختصرة عن أسرة آل إبراهيم التي ينتسب إليها أمير الباحة في زمن الزيارة وهو الأمير إبراهيم بن عبد العزيز الإبراهيم[٧]. ثم أشار إلى تضاريس ومناخ وأطوال وقرى وعشائر وحدود وموقع منطقة الباحة. ويبدو أن جل المادة الواردة في هذه الجزئية منقولة عن معجم الأستاذ علي السلوك الزهراني الذي قام بمرافقه

(١) حصلنا على ترجمته من الصفحات الأخيرة في بعض مؤلفاته.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه. وأولئك الزملاء هم: عبد الرحمن إبراهيم التركي، وهاشم يوسف الزواوي، ومصطفى محمد زاهد.

(٥) انظر نبذة مختصرة عن أسرة آل إبراهيم في كتاب علي حافظ.

(٦) المرجع نفسه، ص ٥ وما بعدها.

(٧) المرجع نفسه، ص ١١-١٥.

علي حافظ في معظم أنحاء المنطقة[١]. ويشير ابن حافظ إلى معنى الباحة لغة[٢]. وما يوجد أيضاً في مدينة الباحة من مشاريع تنموية، ثم يوجز الحديث عن المؤسسات الإدارية الرسمية والأهلية التي كانت في حاضرة الباحة أثناء زيارته لها[٣]. ويسرد أيضاً مشاهداته عن محاور أخرى رآها في المنطقة مثل: الزراعة التي تمارس على نطاق محدود، ومصادر المياه، وتعدد الغابات المتناثرة في أنحاء البلاد[٤]. ثم يذكر ما رآه من خدمات في الميدان الصحي مع الإشارة إلى بعض المستشفيات من مستوصفات ومرافق صحية أخرى، ويشير أيضاً إلى المدارس المتواجدة والمتناثرة في كل مكان، والكهرباء التي تخدم بعض المراكز والنواحي الرئيسية في المنطقة[٥]. ولم ينس الإشارة إلى طرق المواصلات التي تربط أجزاء البلاد الغامدية والزهرانية، وكان أهمها الطريق الرئيس الذي يربط الطائف مع الباحة وأبها[٦]. ويذكر بعض الخدمات الأخرى الموجودة مثل: المساجد وأماكن العبادة، والهاتف، والتلفاز (الرائي)، والمطار وغيرها[٧]. ويشير إلى تواجد بعض الفنادق وأماكن الاستراحة التي يرتادها المسافرون والسياح وغيرهم[٨].

ويذكر هذا الرحالة في نهاية كتابه معلومات قيمة تشتمل على رحلة قام بها شقيقه السيد عثمان حافظ إلى منطقة الباحة قبل(٤٢) سنة من زيارته هو إلى الباحة عام(١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) . ويقول علي حافظ : "... زار أخي السيد عثمان حافظ منطقة الباحة سنة (١٣٦٣هـ)، وعندما قرأ ما كتبته عن الباحة ... ثارت في نفسه ذكريات رحلته لتلك المنطقة فكتب مقالاً في جريدة المدينة المنورة في (١٣/ جمادى الأولى / ١٤٠٥هـ) بعنوان: ما لم ينشر عن الباحة ـ الباحة المتحضرة .. "[٩].

والهدف من نشر علي حافظ ما رآه أخوه عثمان في منطقة الباحة عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م)، يؤكد مقارنة النمو والتطور الحضاري في الديار الباحوية في الزمنين (١٣٦٣ و ١٤٠٥هـ/ ١٩٤٣و ١٩٨٤م) . فكان ضعيفاً متواضعاً في الزمن الأول، متطوراً إلى

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧ ـ ٢٢ . وللمزيد عن معجم السلوك انظر ما ذكرناه عن هذا الكتاب ومؤلفه في صفحات سابقة من هذا البحث .

(٢) للمزيد عن تاريخ منطقة الباحة، ومسمى الباحة . بهذا الاسم انظر: غيثان بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ق١٠هـ/ق٧ـ١٦م) (الرياض : مطابع الحميضي، ٣١ـ ١٤٣٢هـ/٢٠١٠ـ٢٠١١م) . الجزء الثاني، ص١٣٣ ـ ٢٥٠ .

(٣) علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص٢٣ ـ ٣١ .

(٤) المرجع نفسه، ص٣٢ ـ ٣٨ .

(٥) المرجع نفسه، ص٣٩ ـ ٤٥ .

(٦) المرجع نفسه ٦٩ ـ ٧٥ .

(٧) المرجع نفسه، ص٧٨ ـ ٨٢ .

(٨) المرجع نفسه، ص٥٧ ـ ٦٨ .

(٩) المرجع نفسه .

حد ما في التاريخ الثاني (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) . ونجد السيد علي حافظ يؤكد ذلك منوهاً بالمقالة التي نشرها شقيقه في جمادى الأولى سنة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) فيقول: " .. قف على مشارف منطقة الباحة وانظر إليها من خلال سنة (١٣٦٣هـ) ترى بلداً بدائياً[١]. ولكن يد الدولة امتدت إليه فانتفضت انتفاضة عارمة. وقد بدأت الانتفاضة من سنة (١٣٦٧هـ) عندما افتتح الطريق من الطائف للباحة المواطن الباحوي العملاق سعد بن شيبان الغامدي[٢]، بدعم وتأييد الدولة، وانطلقت المنطقة بعد هذه الانتفاضة تركض في طريق التطور والنمو والتحضر حتى صارت تقف في صف مثيلاتها من مناطق بلادنا المتطورة المتحضرة. اقرأ عن تطور منطقة الباحة ونموها في هذا الكتاب[٣]، وقارن بين باحة اليوم سنة (١٤٠٥هـ) وباحة الأمس في سنة (١٣٦٣هـ) [٤].

٢٠ ـ مسفر مرزح الغامدي (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠/ ٢١م) :

لا نعرف تفصيلات كثيرة عن هذا الرحالة، وإنما عرفنا من بعض مدوناته أنه من قرية العبادل، وهي فخذ من بطون بني كبير الغامدية. عاش فيها بداية حياته ثم انتقل إلى بلدة بيشة فمكث بها تسع سنوات، ثم انتقل إلى مدينتي أبها وخميس مشيط وما حولها لعدة سنوات . كما تجول في بلاد نجران وظهران الجنوب وسراة عبيدة وبلاد شهران وبلاد الحجر، وبلاد غامد وزهران، ودون كتابه الموسوم بـ : جولة في ربوع المملكة[٥]، وكان الأفضل أن يكون سماه جولة في ربوع جنوب المملكة العربية السعودية، لأن الحديث الوارد بهذا الكتاب اقتصر على البلاد الممتدة من غامد وزهران شمالاً إلى قحطان ونجران جنوباً[٦]

---

(١) مدونة السيد عثمان حافظ التي دونها عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) أشارت إلى أن منطقة الباحة لا تمشي بها السيارات ولا توجد إطلاقاً، ولا يوجد بها كهرباء، ولا تصل إليها المياه في الأنابيب، وبيوتها من الحجارة المرصوصة ولا تزيد عن دورين وسقوفها مغطاة بالقش والأخشاب، ولا تطلى بيوتها بالطلاء الأبيض، وتوجد بها بعض الأسواق الأسبوعية التي يُباع بها كل ما يحتاجه الناس، ولا يوجد بها أسواق تجارية يومية . للمزيد انظر: علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص ١٠٥ ـ ١١٣ .

(٢) سعد بن شيبان الغامدي يستحق الذكر الحسن، حبذا أن نرى عنه دراسة علمية تاريخية توضح جهوده في منطقته وما قدم لها من أعمال مثل افتتاحه الطريق الترابي بين الطائف ومكة عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) .

(٣) نلحظ في كتاب علي حافظ أن منطقة الباحة تطورت بشكل لا بأس به عام (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) . وهذا ما لمسناه في هذا الكتاب وفي مصادر ومراجع أخرى وبخاصة إذا قارنا تلك الحقبة بالعقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) . أما إذا قارنا بلاد غامد وزهران اليوم بما رآه السيد علي حافظ، فالوضع يختلف كثيراً، بل ليس هناك نسبة للمقارنة . فمنطقة الباحة صارت اليوم من المناطق الهامة والحضارية في عمرانها، ونموها، وتعليمها وسياحتها . ونرى أن على جامعة الباحة مسؤولية كبيرة في إنشاء مراكز بحثية تقوم على دراسة المنطقة في الماضي والحاضر وتوضح ما مرت وتمر به من تدرج حضاري منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتن الحاضر . كما نأمل من أقسام علوم التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والإدارة والتخطيط في الجامعة أن تلتفت هي أيضاً إلى دراسة المنطقة تنموياً وحضارياً .

(٤) علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص ١٠٥ .

(٥) الكتاب لا يظهر عليه معلومات للنشر، ومكتوب على غلافه الأول عبارة (الجزء الأول) .

(٦) المرجع نفسه، ص ٧ وما بعدها .

هذا الرحال الذي لم يذكر تاريخ تجواله في جنوبي البلاد السعودية، تنقل في سروات غامد وزهران[١] وأشار إلى بعض الصور الحضارية التي شاهدها فذكر بعض الملامح لحياة الغامديين، فكان منهم البدو الرحل والمتحضرون المستقرون، ومدينتا الباحة والظفير من أكبر المراكز الحضارية في الديار الزهرانية والغامدية[٢] . كما نوه ببعض العادات والتقاليد والصناعات التقليدية المتواجدة في البلاد الغامدية السروية[٣]. وذكر دور المرأة في هذه الأوطان فقال : "... تقوم النساء بصناعة العباءات الغامدية من صوف الأغنام والإبل و المفارش الصوفية لاستعمالها للمنازل، ودباغة الجلود، ويعملن كالرجال في زراعة الأرض، كما تنوب عنه في غيابه، في كل ما يتعلق بشؤون المزرعة والمنزل .."[٤] . ويواصل حديثه في ذكر بعض الأودية والجبال في ديار زهران وغامد[٥]، ثم يوجز الحديث عن التاريخ السياسي لهذه البلاد منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر، ومعلوماته في هذا الجانب مختصرة جداً ومنقولة من بعض المصادر والمراجع المختلفة[٦] .

الكتاب مع صغر حجمه[٧]، واختصار المادة الخاصة بالبلاد الزهرانية والغامدية لا يخلو من بعض الشذرات التاريخية الحضارية التي شاهدها ودونها صاحب هذا المؤلف. وكنا نتمنى أن يسهب في حديثه عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية . أما الجانب التعليمي والثقافي والفكري فذكره بشكل سريع وعابر. وكان جل حديثه عن سراة البلاد، أما بواديها وأجزائها التهامية فلم يكن لها نصيب يذكر عنده[٨].

ثالثاً : وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم :

١ـ تنوع ثقافاتهم :

الناظر في تراجم هؤلاء الرحالين ونتاجهم العلمي والثقافي يتضح له عدة أمور نوجزها في النقاط التالية :

أ ـ اختلاف أزمانهم وبيئاتهم جعلهم مختلفين متفاوتين في ثقافاتهم . فالكتاب والمؤلفون الأوائل مثل: الهمداني، والمقدسي، وناصر خسرو، وابن جبير، وابن

---

(١) من خلال مقارنة مادة هذا الكتاب مع المادة المدونة عند البلادي وعلي حافظ نجدها متقاربة في محتوياته، وهذا مما يؤكد أن هذا الرحال (الغامدي) تجول في أنحاء المنطقة ودون بعض مشاهدات في بدايات القرن (١٥هـ/٢٠/٢١م) .

(٢) مسفر الغامدي، جولة في ربوع المملكة، ص١٨ .

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧ .

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠ .

(٦) المرجع نفسه، ص ٢١ ـ ٣٠ .

(٧) جميع صفحات الكتاب تقع فقط في (١٠٥) صفحة من القطع دون المتوسط . والصفحات التي تخص منطقة الباحة فقط (٢٣) صفحة.

(٨) انظر : مسفر الغامدي، جولة في ربوع المملكة، ص ٨ وما بعدها .

المجاور، والعُمري، وابن بطوطة موسوعيون في معارفهم وعلومهم. فهم جميعاً أو معظمهم لديهم علم واسع باللغة العربية وعلومها، وكذلك العلوم الشرعية والعقائدية فهم ملمون بالكثير منها . وقد يكون بعضهم شاعراً، وله أيضاً خبرة ودراية بعلوم الحيوان والأفلاك والنجوم، والنباتات، والمياه، والجغرافيا، والأنساب وغيرها. والمتأمل في كتبهم التي وصلتنا، ومنها كتب الجغرافيا والرحلات يجد ذلك ملموساً وأحياناً واضحاً جلياً في أقوالهم وشروحاتهم .

ب ـ التاريخ الحضاري والثقافي للمسلمين من القرن (٣ـ٨هـ/ ٩ـ١٤م) كان عصراً ذهبياً للإبداع العلمي والفكري، وهؤلاء السبعة الرحالون السابق ذكرهم عاشوا خلال ذلك الزمن، ومن ثم فهم جزء من عصرهم الذي جعلهم من أصحاب الإبداع والثقافات والعلوم الواسعة والمتنوعة .

ج ـ النظر في البيئات التي جاءوا منها تجدهم من جميع أرجاء العالم الإسلامي، آنذاك، من الأندلس والمغرب، إلى الشام ومصر، إلى جزيرة العرب وغيرها . بل تجدهم أيضاً تنقلوا في بلدان عديدة، ودونوا مدونات كثيرة عن مشاهداتهم ورحلاتهم . وهذا مما جعلهم ذوي ثقافات متنوعة، وذوي تجارب وخبرات عديدة .

د ـ الرحالون الذين ظهروا بعد القرن (١٢ـ ١٥هـ/ ١٨ـ٢١م) أيضاً متفاوتون في ثقافاتهم، لكنهم لا يرقون في سعة معارفهم إلى الرحالين الأوائل. وبعضهم لغاتهم الرئيسية غير العربية، وعند مجيئهم إلى بلاد العرب تعلموا العربية . أما بيئاتهم فالسواد الأعظم منهم من أبناء الجزيرة العربية، أو عاشوا ردحاً من الزمن فيها . والأوربيون مثل: تاميزيه، وكورنواليس، وبدول، وتسيجر قدموا إلى بلاد العرب لأهداف سياسية واستخباراتية، وأحياناً عسكرية أو عليمة، بالإضافة إلى تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم .

هـ ـ ثقافات العصر الحديث والمعاصر (ق١٢ـ١٥هـ/١٨ـ٢١م) هشة في دراسة العلوم الشرعية واللغوية والآداب والجغرافيا والرحلات والتاريخ مقارنة بالعصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . وخروج بعض الرحالين والمؤلفين الجيدين مثل: حمد الجاسر، والسلوك، والشريف، والبلادي، وعلي حافظ يعد مفخرة كبيرة وبخاصة عند انصراف الناس إلى ثقافات متنوعة سطحية. ومثل هؤلاء الرحالة المتأخرين يعدون من صفوة المجتمع تعليمياً وثقافياً وأدبياً وفكرياً . والدارس لتراثهم الأدبي يتأكد له صحة ما ذهبنا إليه .

و ـ كما أشرنا سابقاً، إلى التفاوت في ثقافات الرحالين المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر مسلم به، لكنهم في غالب الأمر كانوا على ثقافة جيدة وواسعة مقارنة بأهل عصرهم، أو مقارنة بمثقفي وعلماء عصرنا الحاضر.

ز. معظم الرحالين العشرين الوارد ذكرهم في هذه الدراسة قاموا برحلاتهم رغبة في طلب العلم والتدوين . نعم بعضهم رحلوا بهدف الحج والعمرة، وآخرون لأهداف سياسية أو سياحية أو تعليمية أو غيرها، ولكنهم جميعاً دونوا مذكراتهم ومشاهداتهم من باب الرغبة وإفادة الآخرين . وما وصلنا عن طريقهم يعد إضافة معرفية وفكرية وثقافية. ولو لم يكونوا على مستوى جيد من الإدراك والثقافة والمعرفة لما فعلوا ذلك .

ح. هؤلاء الرحالة يذكرون بعض اللمحات أو التفصيلات عن منطقة معزولة في بلاد السراة مثل: أوطان غامد وزهران وما جاورها من السروات، بل إن بعضهم زارها ودون مشاهداته عنها . وهذا يؤكد على أنهم أصحاب فكر وثقافة ودراية بالعلم وإفادة الآخرين .

ط. شمولية ثقافة بعضهم وبخاصة فيما دون عن منطقة الباحة . وحمد الجاسر، والسلوك، والشريف من ذوي الثقافات الواسعة فيما يخص بلاد غامد وزهران . فقد زودونا بمعلومات وتفصيلات واسعة ومتنوعة قل أن نجدها عند غيرهم .

٢. المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات :

هناك مصادر ومناهج عديدة استخدمها هؤلاء الرحالين، ومن أهمها ما يلي :

أ. الرحلة والمشاهدة والانطباعات من أهم المصادر التي قام بها معظم هؤلاء الرحالين، فمنهم من زار منطقة الباحة وكتب مشاهدات في جوانب تاريخية وحضارية متنوعة.

ب. الروايات والمقابلات كانت مصاحبة أيضاً للرحلة والتجوال . فهناك من تجول في بعض أجزاء من بلاد زهران وغامد، وقابل بعض أعيانها أو سكانها ونقل منهم بعض الأخبار والروايات. وفريق آخر لم يروا بلاد الباحة لكنهم التقوا ببعض سكانها السرويين في مكة المكرمة أو الطائف وسمعوا منهم ونقلوا عنهم وعن بلادهم أخباراً متنوعة، ثم ذكروا بعض الأوصاف الخِلقية والخُلقية لأولئك الذين شاهدوهم في أرض الحرمين .

ج. هناك بعض المؤلفين الذين لم يزوروا منطقة الباحة، ولم يلتقوا بأحد منها، لكنهم نقلوا بعض التفصيلات من بعض المدونات وكتب الرحلات . والعُمري وبدول نموذجان من هذا الصنف من الكتاب والمؤلفين .

د. تنوع المادة المدونة في كتب الرحالين، فالبعض منهم ركز على الأوضاع الجغرافية والسياسية مثل تاميزيه وكورنواليس، وهناك من اقتصر فقط على ذكر شذرات سمعها أو شاهدها أو نقلها من مصدر أو مصادر محددة. وفريق ثالث مثل: السلوك، والجاسر توسعا في كتابة مدوناتهما عن البلاد الزهرانية والغامدية.

مع أن معظم شروحاتهما مستقاة من المشاهدات والتجربة بالإضافة إلى السؤال والمقابلة والرواية الشفهية[١] .

٣ـ دراسة مقارنة وتحليل لمدونات الرحالين :

أ ـ من دراسة الرحالة العشرين، لمسنا أن بعضهم كان موسوعياً شمولياً في مدوناته عن بلاد غامد وزهران . ويأتي على رأس القائمة الأستاذان حمد الجاسر، وعلي السلوك الزهراني . فالأول : هو بحق رجل موسوعي في دراسة تاريخ وتراث وفكر وحضارة الجزيرة العربية من العصور القديمة إلى وقتنا الحاضر[٢] .وقد أفرد لنا ذلك بدراستين متفاوتتين في الحجم عن بلاد غامد وزهران[٣] . دون لنا فيهما تفصيلات كثيرة عن جغرافية منطقة الباحة، ومشاهداته لكثير من المعالم الحضارية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية التي رآها في المنطقة الزهرانية والغامدية في التسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وفي العقد الأول من القرن (١٥هـ/٢٠م). والثاني : هو علي السلوك، ابن منطقة الباحة، وصاحب الريادة في مدوناته عن بلاد غامد وزهران في العصر الحديث والمعاصر. وكما ذكرنا سابقاً، فهذا الرجل الزهراني وهب نفسه لخدمة دينه وبلاده فأخرج دراسات عديدة عن المنطقة الباحوية . ومن تلك الدراسات ما هو في باب الجغرافيا وتقويم البلدان، ومنها ما يختص بالتاريخ الحضاري الاجتماعي والثقافي وأحياناً السياسي والأدبي . وجل ما جمعه ودونه ونشره مرتكزاً على التجارب والخبرات، ثم الانطباعات والمشاهدات، وكذلك الروايات والمقابلات[٤] .

ب ـ بعد السلوك والجاسر نجد الرحالون الآخرون يسردون تفصيلات متنوعة ومتفاوتة. ففي ميدان الجغرافيا نرى الهمداني يورد لمحات جغرافية مختصرة عن سروات غامد وزهران. وخسرو ينوه بوجود جبال ومضائق حصينة في أرض السروات، ويذكر أنها شديدة البرودة وبخاصة في فصل الشتاء . أما الموسوي فيشير إلى بعض

---

(١) إن جمع كل ما كتب في مصادر التراث الإسلامي المبكر والوسيط عن بلاد غامد وزهران جدير بالجمع والدراسة والاهتمام . وهناك مؤلفات تراثية، غير كتب الرحلات، مليئة بشذرات متفرقة وتحتاج إلى من يجمعها ويدرسها ويوثقها . والأمل في الباحثين والمؤرخين الغامديين والزهرانيين فيقوموا بمثل هذا العمل العلمي الجيد . وإن فعل بعضهم ذلك فسوف يضيف إلى المكتبة العربية والإسلامية إضافة علمية ثقافية قيمة .

(٢) الناظر في مؤلفات الشيخ حمد الجاسر، وفي مجلته الرائدة، مجلة العرب، يدرك فعلاً أنه أمام عالم جهبذ استطاع أن يخلف لنا كماً هائلا من التراث الحضاري والفكري عن بلاد العرب وبخاصة الجزيرة العربية، فرحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح جناته .

(٣) الدراسة الأولى خرجت في كتابه : في سراة غامد وزهران . والثانية : في محاضرة قدمها في الباحة عام (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) بعنوان : لمحات وانطباعات عن مشاهداتي في السروات . للمزيد انظر : تفصيلات عن حمد الجاسر في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٤) نقول إن ما حفظ لنا الأستاذ السلوك يستحق الإشادة والبحث والتحليل والدراسة . وهذه مسؤوليات الباحثين والمؤرخين المنصفين من أبناء منطقة الباحة، فالواجب عليهم دراسة آثار هذا الباحث وذكر مآثره الحسنة التي أسداها لأبناء بلده ومنطقته .

المعالم الجغرافية في الأجزاء الغربية من الديار الزهرانية والغامدية، بالإضافة إلى كثرة الحيات والثعابين والزواحف في تلك النواحي . وتاميزيه يذكر الأجزاء الشرقية لبلاد غامد، وبخاصة وادي العقيق ويشير إلى تنوع تضاريسه وتبدل مناخه ما بين الليل والنهار . ومحمد عمر رفيع نقلاً عن بعض التقارير العلمية يذكر كثرة الأشجار والنباتات البرية في منطقة غامد وزهران[١] .

ج - وعن التركيبة البشرية والسكانية، نجد الهمداني، وناصر خسرو، وابن المجاور، وابن فضل العُمري يذكرون تعدد البطون والعشائر في بلاد السراة، ثم إن الشيوخ والأعيان هم أصحاب الحل والعقد في قبائلهم وعشائرهم . كما وجد العبيد والموالي الذين كانوا يعملون في الأعمال الشاقة والوضيعة عند عشائرهم وسادتهم . ويأتي كورنواليس وبدول فيذكران معلومات قيمة عن البطون والعشائر الحضرية والبدوية الغامدية والزهرانية، ويشيران إلى بعض الأعيان والشيوخ في تلك القبائل، وأحياناً ذكرا أعداد دقيقة ومحددة لسكان بعض العشائر في المنطقة[٢] .

د - وفي الحياة السياسية والإدارية والحربية : نرى العُمري وابن المجاور وخسرو يذكرون أن القرار السياسي في سروات غامد وزهران كان عند شيوخ وأعيان القبائل. وأورد بدول وكورنواليس أمثلة لبعض شيوخ زهران وغامد الذين يحكمون بلادهم، حاضرة وبادية، فكانوا على صلات سياسية وإدارية وحربية مع بعض القوى القائمة في الحجاز أو عسير أو جازان . بل نجد هناك الكثير من الوثائق الحديثة التي تؤكد على التقارب وأحياناً التباعد بين أولئك الشيوخ وتلك الإمارات أو الحكومات السياسية مثل: آل عائض في عسير، والأشراف في الحجاز، والإدريسي في جازان[٣] .

أما المركز الإداري لبلاد غامد وزهران في العصر الإسلامي المبكر والوسيط، فلا نجد هؤلاء الرحالين يذكرون لنا شيئاً في هذا الباب[٤] . وفي العصر الحديث

---

(١) بلاد السراة بشكل عام مليئة بالأشجار والنباتات المتنوعة في أحجامها وأشكالها وفوائدها العامة والخاصة . وجامعات جنوبي البلاد السعودية عليها مسؤولية كبيرة في دراسة أزهار وأشجار ونباتات بلاد تهامة والسراة الممتدة من الطائف ومكة المكرمة شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً .

(٢) بلاد الباحة مأهولة بالسكان، والعشائر والبطون المتعددة والمتفرقة . وذكر بعض الإحصائيات عند بعض الرحالة الوارد ذكرهم في هذه الدراسة غير دقيقة، لأنهم لم يعتمدوا في جمع مادتهم على مصادر واضحة وموثوقة، وإنما كانوا يجمعون معلوماتهم من عامة الناس، وربما من بعض الأعيان والشيوخ الذين يغلب عليهم الهوى أو الرغبة في إيراد معلومات تعود عليهم بفائدة أو مصلحة محددة .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: المصادر والمراجع التي ناقشت التاريخ السياسي لتلك القوى والحكومات في القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) .

(٤) عندما نعود إلى مصادر التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط . نجد أن ناحيتي جرش حول مدينة أبها، وتبالة قريباً من بيشة وبلاد غامد كانتا من الحواضر الرئيسية في بلاد السراة . وربما أن تبالة كانت هي المركز الرئيس الذي يدير دفة البلاد من النماص وبيشة إلى بلجرشي والباحة . للمزيد انظر: غيثان بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، الجزءان الأول والثاني .

والمعاصر يذكرون أن بلاد رغدان والظفير وبلجرشي ثم الباحة كانت هي المراكز الإدارية لحكم منطقة الباحة[١] . ونجد الجاسر والبلادي وعلي حافظ يذكرون بعض المؤسسات الإدارية في منطقة الباحة أثناء زيارتهم لها في أواخر القرن الهجري الماضي وبداية هذا القرن[٢] .

هـ - وفي الحياة الاجتماعية نلحظ خسرو، والهمداني، وابن المجاور، وابن فضل الله العُمري، والموسوي، وكورنواليس، وبدول، والبلادي يؤكدون على أن تركيبة البلاد الزهرانية والغامدية قبلية عشائرية، بالإضافة إلى كثرة القرى المتناثرة في أنحاء البلاد التهامية والسروية. ويذكر بدول وكورنواليس أسماء بعض القرى والبطون مع إيراد أسماء شيوخها أو نوابها . ويشير ابن المجاور وخسرو إلى كثرة الحصون في المرتفعات السروية، ويصف تاميزيه بعض القرى والحصون والمنازل التي شاهدها في وادي العقيق، وكيف كانت بسيطة ومتواضعة . والبلادي وعلي حافظ وأخوه السيد عثمان حافظ من قبله يذكرون أن المنازل المبنية من البلك والأسمنت دخلت بلاد زهران في العقود المتأخرة في القرن (١٤هـ/٢٠م) . ومنذ أوائل القرن (١٥هـ/٢١م) نجد أن العمران تطور في عموم منطقة الباحة[٣] .

أما الألبسة والزينة فليس لها ذكر كبير في مدونات هؤلاء الرحالين، اللهم إلا إشارات بسيطة ذكرها ابن جبير وابن بطوطة عندما وصفا أهل السراة الذين يرتادون بلاد الحرمين، فذكرا أنهم كانوا يشترون الخرق والعباءات والشمل والأقنعة والملاحف من مكة ويعودون بها إلى بلادهم(٤) . وقد وصف ابن جبير ملبسهم فقال: " ... ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها ... " (٥). أما الأطعمة فذكر بعضهم معلومات قيمة في هذا الباب، فابن جبير، وابن بطوطة، وابن المجاور، والعُمري، ومحمد رفيع، وثسيجر أكدوا على وفرة الحبوب والفواكه في سروات غامد وزهران وما جاورها، وأشاروا إلى أن تلك السلع كانت فائضة عن حاجة الناس فيصدرون الكثير منها إلى أسواق الحجاز . والأمر الذي لاشك فيه أن الأراضي الزهرانية والغامدية زراعية، وتتوفر بها المياه والأيدي العاملة التي تقوم

(١) نأمل أن نرى أحد المؤرخين الجادين أو واحداً من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية فيدرس التاريخ الإداري لمنطقة الباحة خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م).

(٢) المرجع نفسه .

(٣) تاريخ التنمية في منطقة الباحة جدير بالبحث والدراسة منذ ثمانينيات القرن الهجري الماضي حتى يومنا الحاضر . وهذه مسؤولية جامعة الباحة فتنشئ مراكز بحوث ودراسات تقوم على دراسة مثل هذه الجوانب التاريخية الحضارية .

(٤) ابن جبير، ص١١٠ - ١١١، ابن بطوطة، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٥) ابن جبير، ص ١١٢ .

على زراعة الأرض وخدمتها. وكانت هذه البلاد إلى عهد قريب مصدراً رئيساً للحبوب والفواكه التي تصدر إلى الحجاز وغيرها من المناطق المجاورة . أما اليوم فالزهرانيون والغامديون تخلوا عن ممارسة الزراعة وأصبحوا يعملون في أعمال ووظائف حكومية أخرى تجلب لهم المكاسب المالية الكثيرة والسريعة مقارنة بأعمال الزراعة[١] .

ومن صفات سروات غامد وزهران ما أشار إليه ابن جبير، وابن بطوطة، والعُمرى، وتاميزيه فهم أهل شجاعة وكرم، وأصحاب عقائد خالصة صافية، ومما ذكر عنهم ابن بطوطة عندما شاهد بعضهم في مكة المكرمة، قوله : " ... بلاد السرو التي يسكنها ... زهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة، كثيرة الأعشاب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء بالألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم ... "[٢] .

و ـ وعن الحياة الاقتصادية يشير ناصر خسرو إلى أن أهل السراة كانوا أصحاب إبل وماشية . ويؤكد معظم الرحالة من ابن جبير، وابن المجاور، والعُمري، والجاسر، والسلوك، وابن حافظ، ومسفر الغامدي إلى أن بلاد زهران وغامد أراض زراعية يزرع بها صنوف الحبوب والفواكه والمزروعات . أما الصناعات والحرف اليدًوية مثل: النجارة، والدباغة، والخرازة، والنسيج والخياطة، والحدادة والصياغة، والصناعات الفخارية وغيرها فكانت تتواجد بكثرة في أرض غامد وزهران، والقائمون عليها من أهل البلاد، وربما جلبوا بعض العبيد لممارسة بعض هذه المهن .

أما التجارة فكانت هي المهنة الرائجة عند كثير من الغامديين والزهرانيين . فالمقدسي، وابن جبير، وابن المجاور، وابن بطوطة، وابن رفيع، وشسيجر، والبلادي، وابن حافظ، ومسفر الغامدي يشيرون إلى النشاط التجاري الجيد الذي كان بين سروات زهران وغامد وبين أسواق الطائف ومكة المكرمة . وابن جبير يصف تلك الصلات التجارية فيقول: " .. إنهم ـ أي سروات زهران وغامد وما جاورهم ـ يجمعون بين النية والعمرة وميرة البلد بضروب الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء

---

(١) هذه العادات أصبحت تقريباً سائدة في أنحاء البلاد السعودية وبخاصة جنوبيها، فالناس تركوا أعمال الصيد والرعي والزراعة وأصبحوا يمارسون التجارة والأعمال الوظيفية الحكومية التي تجلب لهم الراحة والفائدة المادية . هذا ما لمسه الباحث وشاهده خلال الأربعين عاماً لماضية .

(٢) ابن بطوطة، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

وإلى ما دونها . ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم من الطعام والإدام والفاكهة . ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد... "[١] . ويقول أيضاً : "... ومن العجيب في أمر هؤلاء (السرو) المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرنا بدينار ولا درهم، إنما يبيعونها بالخرق والعباءات والشمل... "[٢] .

ونجد كورنواليس وبدول يذكران بعض الطرق التجارية التي تربط الباحة مع غيرها. ومن تلك الطرقات طريق أبها الطائف، وذكر كورنواليس بعض المحطات الموجودة على تلك الطريق وما يوجد بها من سلع وتجارات . كما يوجد في منطقة الباحة أسواق عديدة، ومن أهمها : أسواق الظفير، ورغدان، وبلجرشي، والباحة، والعقيق وغيرها.

لم يتعرض الرحالون إلى العملات التي كانت موجودة في بلاد زهران وغامد، مع أن المقدسي أشار إلى العملات والمكاييل والأوزان التي كانت موجودة في أسواق الحجاز، ومن المؤكد أن الغامديين والزهرانيين قد عرفوها وتعاملوا بها . أما الأسعار فلا نجد لها ذكراً عند المتقدمين والمتأخرين منهم، مع أن بعض الرحالين المحدثين مثل: البلادي، وعلي حافظ، والجاسر، ومسفر الغامدي أشاروا إلى وجود الأسواق اليومية التي تخدم الناس على مدار النهار والساعات الأولى من الليل .

ز. أما الحياة الثقافية والتعليمية والفكرية فلا نجد الرحالين الأوائل يشيرون إلى أوضاع الغامديين والزهرانيين في هذا الميدان، اللهم إلا أن الهمداني، وابن جبير، والعُمري، وابن بطوطة أشاروا إلى فصاحة تلك البلاد . وذكروا صفاء عقائدهم الدينية، لكننا لا نعلم أي شيء عن علمائهم ومدارسهم وثقافاتهم وبخاصة في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . ومن المؤكد أنه كان عندهم بعض المعلمين والمتعلمين والعارفين بعلوم الشريعة وصلاتهم بأهل الحجاز تجارياً وفي أوقات الحج والعمرة كفيلة بأن تجعلهم يؤثرون ويتأثرون بالحياة العلمية في أرض الحجاز[٣] .

أما الرحالة المتأخرون من الجاسر والسلوك إلى مسفر الغامدي فقد ذكروا مشاهداتهم لبعض المدارس الموجودة في المناطق الزهرانية والغامدية. كما أشاروا إلى العديد من المؤسسات الإدارية الموجودة في المنطقة، والتي كان يعمل بها العديد من الموظفين المتعلمين، وبعضهم من أهالي زهران وغامد، وآخرون وفدوا إليها من مواطن أخرى[٤] .

---

(١) ابن جبير، ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١ .

(٣) حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين يقوم بدراسة الصلات الثقافية والحضارية بين بلاد السراة والحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة . ومن يفعل ذلك فإنه سوف يضيف للمكتبة العربية عملاً علمياً مفيداً وقيماً .

(٤) دراسة الحياة الثقافية والفكرية والتعليمية في منطقة الباحة منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتنا الحاضر

رابعاً : الخلاصة مع بعض النتائج :

إن الرحالـين المذكوريـن في هذا المبحث اختلفـت أزمانهم، وثقافاتهـم، وأهدافهم . فمنهـم الذيـن جابوا أجزاء من جزيرة العرب، وذكروا سـروات غامـد وزهران في طيات حديثهـم مـع أنهم لم يروا أو يـزوروا هذه المنطقة، ومن أولئك المقدسـي، وخسـرو، وابن جبـير، وابـن المجاور، والعُمري، وابن بطوطة، ومحمد رفيـع، وقد جمعوا ما تم تدوينه من بعض الرواة السرويين، وأحياناً بالنقل من بعض الكتب والمدونات الأخرى . وفريق آخر من الرحالـة زار منطقـة الباحة، وكتب عن بعض معالمها الجغرافية والتاريخية والحضـارية، وهـذا النـوع من الرحالين تفاوتـوا فيما ذكروه عن هذه البلاد، وفي الأوقات التي قضـوها فيها، والنواحي والبلدات التي تحدثوا عنها .

والمتأمـل في أهـداف كل رحالة ذكر منطقة الباحـة (غامد وزهران) نجد معظمهم أشاروا إليها من باب الرغبة في التدوين وحفظ بعض الثقافات والمعارف عن منطقة نائية مثـل أرض السـراة الواقعة بـين الطائف وجازان ونجـران . لكن هناك أيضـاً من كان له أهداف سياسـية واسـتخباراتية مثل: كورنواليس الذي زار مناطق عسـير وما جاورها في أوائل القرن الهجري الماضي من أجل جمع وتدوين بعض الحقائق العلمية عن هذه البلاد. وذلك بدافع تقديمها إلى رجال السياسـة والاسـتخبارات البريطانيين . ومع أنه قد أرسل من سادته الإنجليز لتحقيق هدف سياسي معلوماتي محدد، إلا أننا نحن معاشر الباحثين اسـتفدنا منه مادة علمية جيدة عن هذه البلدان الجنوبية، والتي يصعب علينا أن نجدها في مصدر أو مرجع آخر. وما وصلنا من معلومات عن طريق جميع الرحالين المذكورين في هذا الكتاب يعد مكسباً علمياً جيداً، وقد يفتح آفاقاً أوسع فتصدر دراسات علمية أكاديمية جادة ومطولة، ومن ثم فلنا بعض التوصيات التي نسردها في النقاط التالية :

١. كتب الرحلات من المصـادر الهامة والرئيسـية التي تفيد المؤرخ في كتبه وأبحاثه ورسائله العلمية، وبالتالي فلا غنى للباحث من الرجوع إليها والاستفادة منها .

٢. ما أوردنا في هذا القسم يختص ببلاد لم تنل حقها من البحث والدراسات العلمية والتاريخيـة، وكثـير من الرحالـين الذين جاء ذكرهم معنا لم يقدموا لنا صـورة واضـحة عن تاريخ وحضـارة هذه المنطقة . مع أن بلاد غامد وزهران عندها من المؤهلات الحضـارية ما يجعلها ذات تاريخ حضـاري مجيد . وفي المحاور التالية نشير إلى بعض العناوين الجديرة بالبحث والدراسة في ميدان الرحلة والرحالين

موضوع جدير بالاهتمام ويستحق أن يكون عنواناً لكتاب علمي، أو رسالة علمية لدرجة ماجستير أو دكتوراه . نأمل أن نرى أحد الباحثين في منطقة الباحة فيتناول هذا الموضوع بالبحث والتحليل والدراسة .

وبخاصة ما يتعلق منها بسراة وتهامة غامد وزهران، ونذكر منها ما يلي :

أ- الباحـة (بلاد غامد وزهران) كما وردت في كتب التراث الإسـلامي المبكر والوسيط .

ب- بـلاد غامد وزهران كما رآها الرحالة المسـلمين وغير المسـلمين في العصـر الحديث والمعاصر.

ج- دراسة التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة الباحة من خلال كتب الرحلات قديماً وحديثاً .

د- بلاد غامد وزهران في مؤلفات حمد الجاسر (دراسة تاريخية تحليلية) .

هـ -منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران) في مؤلفات علي صالح السلوك الزهراني (دراسة تاريخية تحليلية) .

و- سراة وتهامة غامد وزهران في روايات وأقوال المعلمين والموظفين بمنطقة الباحة (١٣٥٠-١٤٠٠هـ / ١٩٣٠-١٩٨٠م) (دراسة تاريخية تحليلية).

ز- منطقة الباحة في عيون أعيان وأعلام وشـيوخ غامد وزهران خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) .